

د. يوسف عز الدين

قلب على سفر



دار الشروق

قلب علی سفر

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة: اختراع جواد حنفي - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقية: شروق - تلبرك: 93091 SHROK UN
بيروت: ص.ب. ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٢ - برقية: دار الشروق - تلبرك: RHOROK 20175 LE
SHOROUK INTERNATIONAL: 318/318 REGENT STREET, LONDON W1, UK, TEL: 637 2743/4, TELEX: SHOROK 257786

د . يوسف عز الدين

قلب علي سفر

دار الشروق

مقدمة الطبعة الثانية

الفن القصصى من الفنون الجميلة التى دخلت العالم العربى حديثا بشكلها الغربى وقد اصبحت وعاء لاحتواء آراء المفكر والناقد الاجتماعى والتيارات النفسية والبواعث الذاتية للمجتمعات الإنسانية .

وقد حرصت فى هذه الرواية أن أتجاوز مرحلة القصة الحديثة التى سار على نهجها الكتاب فجمعت فيها الرواية والقصة والمقالة والحوار الداخلى والعوامل النفسية والاشارات اللغوية والتعبير باللفظ الموحى والحوادث الدالة على خطوات المجتمع العامة ، سواء فى السرد أم فى مسيرة ابطالها أو الاستيطان الداخلى فى الحوادث .

ولم يلتفت أكثر القراء إلى مافيه من رمز موح وإشارة إلى حدث عام وحسبها رواية متعة فنية وقصة احداث غرامية . دون أن يسبروا غور الهيكل العام لها وفهم الاجزاء الصغيرة والكبيرة الموحية .

وقد كتب عنها زملاء أفاضل وقابلوها بقبول حسن واطراء كريم فقد كتب عنها الدكتور حسن الشماخ بحثا مطولا فى مجلة عالم الكتب كما كتب عنها دراسة مقارنة الدكتور رضا حوارى وعقد لها الدكتور عزت عبد المجيد خطاب ندوة تحدث فيها الدكتور حسن الشماخ وناقشه الزملاء الأساتذة الدكتور منصور الحازمى والدكتور حسن ظاظا والدكتور شكرى عياد والدكتور عبد المنعم اسماعيل وتلميذى عبد الله الفينى .. أضافة إلى ماكتبه الزملاء فى الجرائد السيارة فلهم

منى أكرم التقدير والشكر على ما بذلوه من وقت وجهد .
وعسى أن تنال هذه الطبعة ما نالت الطبعة الأولى من القراء والنقاد من
القبول .

د . يوسف عز الدين

فى مطار لندن

وقف جامدا صامتا يحدق فى ناحية واحدة . لا يرم عنها . وأطال التحديق فيها . فكانت تقاطيع وجهه كالجلد المدبوغ ليس فيه حياة ولا حركة . شرود وحيرة . كأنه ينتظر وصول إنسان . إنه يحدق فى سلام المطار . أطال التحديق .. وما طرفت له عين وكأن العينين قد ثبتتا فى المحجرين .

هل أوقفه من هذا التحديق ؟

خشيت أن تهز المفاجأة عواطفه . إنه صديق حبيب من أصدقاء الدراسة الجامعية . أراه فى هذا الدهول فى مطار لندن . كان معروفاً بالاتزان وما رأيته إلا والوقار يحف به . والرزانة تزينه .. إنه هو .. هو بعينه يقف بلحمه وشحمه . لم تغيزه السنون لولا بياض الشيب الذى أخذ يسابق سواد شعره .

طلبت الشاى وأنا جالس فى المقهى الصغير أرقبه بقلب واجف وعين حيرى . وشريت كوب الشاى . وسرعان ما عدانى ذهوله . وبدأت أتتبع حركاته وسكناته . أو هكذا خيل إلى . لأنه لم يتخرج من وقفته .

كانت وفود المسافرين والقادمين تملأ رحاب الصالات حول جمالات البضائع المتحركة . وأزيز الطائرات الهابطة والمحلقة يصم الآذان . لكنه كان

فى دنفا أأرى لا فسماع فىفا ولا أهزه ولعلها لم أأأخل إلى أأفاله لأأأأ وأومه .
وأأفر من وأففه وأأركه من سكونه . فأأ أأا أأرا من السفاأ الذى
أأأأ علىه .

ساوأأأى أأفالات أأى فى الباعأ على أهذا السهوم وهذا السكون
العأفب ولم أصأأر فأأ طال وأومه . واسأأر أأأفقه . وما أنا ناوأأ الأأل
أأن الشأى إلا وأأأه فأأ أرك فأفه أأ أأأأ ساعأه ونأر فىفا . أأ أأر
أسمه . وسأب رأفله سأبا وكأأنه عامل أأأ لأوه من منأم لألقع
الصأأور . أأ اسأرأى بأفه وسار بهأوه وأأار وكأأنه ملابسه أأأ أن أفر من
أسمه فأرا .

وأأأ أن أنأأ إلىه . فأنا فى لأأن وأأرفها أأا . وأأام أن فأأأ
الصأأى من مساعأى وأأأأ إلىه . وسأعان مأأ أأاه وأأر المأار إلى
سأأه الأأأأة .. وفى السأأة رفأ عففه إلى السماء بأأ أن نأر إلى ساعأه
أكأر من مرة . فرفأ على عأاه طفف ابأسامة أأأأ إلى أأأة ملاأأ
أسارفر وأأار إلى السماء وكأأنه فوأأ صأأفا فراه فى إأأى الطأأأأأ
المأأة فى الفأأ الرأب . أأ أأه إلى سفاأة الشأة الرأأة إلى لأأن .

أأأأأأ الموأأس فى نفسى وأأأأأأ الأأفالات فى أهنى أأأأ عن
سره بأأ أن سأأى مرآه وأأول من شوق عارم إلى اللأاء . إلى رأة عمفقة فى
اسأأناه أهذا السر الأأفن .

أأأه فى عالمه الأالم الذى أأأه به سعاأا . أأأه فى أأفاله المأأ لفعش
فى عالم رأب أأفه لأفسه وأأفال أففب فعش فى أأناه . وأأأ أن أأأه

من بعيد وأترسم خطاه . عن كذب . فلما دخل السيارة أخذ المقعد الأول وأخذت المقعد الأخير .

جلس قرب الشباك . وصبح في الخيال وعاد إلى نظرتة الجامدة ووجومه العميق وأصبح قطعة جامدة من السيارة .

وقبل أن يتحرك الباص جلست بجانبه فتاة يفوح الصبا من أعطافها ويزهو الجمال في صباها . ولم يكن الطريق قصيرا فتوقعت أن يتحدث إليها وهو زير النساء . أو تحدثه لأن الفتاة الغربية يلفت نظرها الشرق الأسمر وتعجب به .. فرأيتها تحدثه أو تسأله شيئا .. ولكنه أجابها دون أن يدبر لها رأسه إذ لم أر غير حركة الفكين السريعة وكأنه يرد باقتضاب وملل . ولم يخامرها اليأس وتحدثت إليه ثانية وثالثة ولم أر غير هزات رأسه ترد بعنف واقتضاب كأنها ذبذبة النابض .

وفي (اريل سكوت) أخذت السيارة تخفف من سرعتها . فوقف . وبلا شعور وجدت نفسي واقفا أنزل ورائه وأتبعه . أتبع خطاه من بعيد . وهو غارق في همومه ووجومه وكأنه يحمل على عاتقه ما في الدنيا من مواجع وآلام .

كيف تحول صديق الدراسة الشديد المرح السريع النكتة الجميل الضحكات إلى النقيض ؟ فما علمت . عنه التزمّت والتعقيد . إنه مثال البساطة والطيبة والرقّة بين الزملاء فتعلق به أصحابه وأخوانه لرقّة أخلاقه وكرم سجاياه .

أخذت أتبع خطاه مسحورا مهورا مثله ونسيت نفسي . فسار هو في شوارع لندن وأزقتها . لم يكن يسير على هدى . أين يريد أن يذهب ونحن في

(ايرل سكوت) ملتقى المواصلات ، لِمَ لَمْ يركب القطار الأرضي ؟ لِمَ لَمْ يستقل
السيارة العامة ؟ أيريد أن يسلي نفسه في السير ؟

لم إذن هذه النظرة الشاردة والحزن المقيم ؟ علام يحرق في السماء بين فترة
وأخرى ؟ ولماذا يكثر النظر إلى ساعته ؟

هل يستلهم السماء ؟ هل يدعو من الله ؟

هل أصاب صاحبي مس ؟

أسئلة كثرت . اختلطت في ذهني وأنا أسير في أثره ..

أخذت تساورني الشكوك . وتتأبني مختلف الأفكار وبدأ الشك يتسرب
إلى روحي ويهز كيائها . ووضع بيني وبينه سدا لا أقدر على اجتيازه فقد كبر
الإحساس الغريب في روحي حتى خيل إلى أن عملاقا يفتك بي ويضيق علي
الحناق فاغرقت في الوجوم وشردت نظرتي ونسيت نفسي وذهلت عما يدور
حولى وكأني نمت مغناطيسيا وأنا أسير في أثره من شارع إلى شارع ومن درب
إلى درب ومن طريق إلى طريق دون أن أكرث لإشارات المرور وتخطيط عبور
المشاة. وإذا بي أمر به دون أن أعي وانخطاه دون أن أشعر فقد اضطرب سيرى
واختلف خطاى .

فما أحسست إلا ويبد تمسكنى من يدي وصوت يطفح بالفرحة والسرور

يقول :

- على فين ؟

ثم نظر في وجهي هادئا ضاحكا وقال :

- أناق من ورائي ولا ترانى ؟

وبلا وعى احتضنت صاحبي وسالت عبراني وكأنتي وجدته ثانية .
والحقيقة وجدت نفسي فقد ضحك وقال :

- ما بك ؟

- إنها دموع الفرح باللقيا .

فاهتزت مشاعره وأخذ يقبلني ثم يحتضني .

قلت : وبحك ألا تدري أن القبلات والأحضان في لندن بين الرجال عيب .

- لتذهب تقاليدهم إلى الجحيم فإن في عاداتهم وأخلاقهم ما يكون
مدعاة سخريتنا ولكننا لا ننقدها لأنها أخلاق أهل الغرب وننظر إليها باحترام .
ولطالما قلدناها وإن لم تتسق مع التقاليد العربية والعادات الإسلامية .

وسرت معه وقد شملني السرور ، استعدت وعبي وقوفى لما عاد إلى مرجه
وضحكته الحلوة البريئة وبدأنا نتحدث عن أيام الجامعة والإسكندرية وأيام
الدراسة واستعدنا ذكرياتنا في سفرات الجامعة ونكات الأساتذة والمعاكسات
التي كنا نقوم بها . وما أجمل ذكريات الدراسة وأحلاها تلك التي لا يعرفها
الطلاب إلا بعد أن يتركوا الجامعة ويعودوا إليها أو حين يلتقي الزملاء . إنها
أجمل الذكريات وأعذبها .

كان صديق قريب النفس والخلق من أخلاقي وروحي فشعرت بالراحة
ونسيت حالته ونسي كل شيء في لندن وعدنا إلى الماضي الحلوا الجميل .

سار كامل في الطريق إلى (كنزكتن) ولم يمر بالطريق العام . ودخل إلى
حديقة (هايد بارك) الممتدة حتى قصر كنزكتن مقر أفراد الأسرة المالكة فقد

أهدت الأسرة المالكة إلى الشعب هذه الحديقة التى يتيه فيها الإنسان ويضل فيها حتى أبناء لندن .

ودخل الحديقة قرب « كونيذكيت » Queen's gate وأخذنى معه فى جولة فى حديقة الورد الجميلة وطاف بأرجائها وكأنه يمر بقدس من الأقداس وكان يقف آونة فيحدثنى عن زهرة أو يشير إلى وردة فهو يعرف أسماء هذه الأزهار معرفة الخبير وأسمع قوله دون فهم .

ثم مر بتمثال الملكة فيكتوريا ويدها الصولجان فضحك وقال :
كم من ملكة ذهبت وكم من ملك مات ولم يبق غير الذكرى الحميدة .
قلت له :

أتدرى أن الإنكليزى يتفاعل فى عهد الملكات وأن أبناء الشعب يحبون عهودهن ويفضلونها على عهد الملوك فقد ظهر من التجارب الماضية أن الازدهار والتقدم والسلام كان فى عهد الملكات .

قال : المرأة جميلة ويجب أن يكون عهدها جميلا .

قلت : المرأة وفية .. وهذا .. وأشرت إلى تمثال البرت الشامخ زوج فيكتوريا - وقلت له هناك الوفاء فى قاعة البرت الموسيقية ومتحف البرت فقد خلدت ذكرى زوجها فكم من الرجال خلد الزوجات إذا استثنيت تاج محل فى الهند ؟

قال : المرأة غادرة خائنة سرعان ما تستسلم للمغريات وللمناصب وللمال أما الرجل فهو الوفى على العهد . وخرجت الكلمات مثل الطلقات من فيه .

- لا يا صاحبي يجب أن تكون المرأة وفية لأنها هي التي تحفظ النسل ومتى خانت ضاع النسل ووافؤها حماية للأبناء وعناية بهم فهي تعاني تسعة شهور وترضع . أما الرجل فمن طبعه الخيانة إن كان عمله يسمى خيانة لأن الرجل يقوم على إكثار الجنس البشرى والمرأة هي التي تحافظ عليه وتصونه . وما أن وصلنا بحيرة صغيرة حتى رأينا البط مع صفاره يسبح فيه في هدوء وثقة ويقترّب من الناس فيطعمونه ولا يهرب منهم أليف وكل الحيوانات هنا أليفة لا تخاف الإنسان ولا تهرب منه لأنها تلقى من العناية والرعاية ما يحلم به الإنسان في أوطاننا .

فنظر إلى والإعجاب يملأ قلبه ويطفح في عينيه قال انظريا أخى إلى هذه الألفة الغريبة . لا الطير يخاف ولا البط يهرب . العصفور يأكل من أمامى باطمئنان فلماذا تخاف الحيوانات في أوطاننا منا وتهرب ولماذا نحاربها ونقتلها ؟
اسمع يا كامل :

نحن قاسينا من الاستعمار البريطانى ما قاسيناه لأننا شعب ضعيف ولكن الإنكليز في بلادهم لا يقدرّون على هضم حقوق أبناء أوطانهم لأنهم سوف يثورون على الحاكمين ولو كنا شعوبا قوية لما تجرأ الاستعمار على بلادنا .

والحاكم من الشعب الذى يختاره بكل حرية ودون أن يتدخل إنسان في الاختيار ويحس الشعب بأن المشاركة في الانتخاب واجب لا يقصر عنه . ومتى أحس بأن الحاكم خرج عن خطته لم يعد انتخابه .

قال أجل أعرف قصة تشرشل الذى كسب النصر لبريطانيا بالجهاد والنضال وبالدم والدموع وكانت انكلترا وحدها ولكنه انتصر وفرض شروطه

على الأعداء . وفي الانتخابات سقط تشرشل لأن الشعب خاف منه أن يفتتن بنفسه وقال له نحن نريد رئيسا للسلام وقد انتهى عهد الحرب .

وهذا ما صنعه عمر بن الخطاب حينما عزل خالد بن الوليد بعد أن كثرت انتصاراته فخشي أن يظن أن النصر جاء بقوته لا بقوة العقيدة والإيمان . قال أذكر أن بعض قواد الفرق أحمد ثورة في إحدى جهات بلاده في قطر من أقطارنا ولما عاد إلى العاصمة أحدث انقلابا لأنه ظن أنه فاتح وأن عمله منة على الوطن ونسى أن من واجبه الأول هذا العمل فقد رباه وصرف عليه وأسبغ عليه لهذا اليوم . ولو كان الشعب قويا لما تجرأ أمثال هذا على العمل والتدخل في الشؤون العامة .

كان صاحبي ينظر إلى الحديقة العامة وقد سار الأحبة زوجين زوجين فهذان يحتضنان وهذان يقبلان وهذان مضطجعان على الأعشاب الجميلة فقال بلا شعور :

كل الأحبة اثنين اثنين وانت يا قلبي حبيبك فين .

ضحكت وقلت : كثيرات الحبيبات .

وأخذني إلى حديقة جانبية قرب متحف لندن وكأنها روضة من رياض الجنة . وسرنا في ممشي وجداني شاعري مغطى بالأشجار التي تحاول الشمس أن تنخللها فتصدها الأوراق الملتفة . كان الصراع واضحا بين الشمس المشرقة وأوراق الشجر وكانت هناك فتحات بين الأشجار تطل على بحيرة جميلة صغيرة فيها أزهار مائية من مختلف الأصناف الرائعة الجميلة وحولها أصص متباينة الألوان والأشكال والهندسة .

والتفت إلى وقال :

ألا تعتقد أنني أعرف لندن خيرا منك ؟

قلت : أشهد أنك تعرفها ولكن لا أظنك أكثر مني .

مررنا بمتحف لندن وقال ألا تريد أن تراه ؟

قلت : رأيته فهو متحف الأسرة المالكة وملابسها المتنوعة .

ترك صاحبني يتحدث وتركته يأخذني إلى حيثما شاء حتى كدنا نترك الحديقة ونعبر الشارع العام .

قال : أتدري أن أحد مواطنيك قد دهسته السيارة هنا وكادت أن تقتله .

- ولماذا لم يعبر عن الطريق المخصص للمشاة وقد خططت الأرض ووضع على الجانبين الأنوار الصفراء لتنبيه السيارات من بعيد ووضعت هذه الخطوط في مكان يسطع فيه نور الكهرباء .

فلم يجب وقال :

لو أنه عبر من هنا وصدمة السيارة لنال السائق أشد العقاب إذ لا يمكن للسائق أن يمر بالسابلة عندما يضعون أرجلهم على الخط الأبيض ولكن صاحبك سوف يؤدي تعويضا للسائق لأن السيارة أصيبت بأضرار وهو في المستشقى والغريب أنه يلوم السائق لأنه لم ينتظر وقال :

لماذا لم ينتظر ؟ ! وماذا عسى أن يحدث لو تأخر - فهو يفرض النظام .
بل نحن نكسر النظام ونتباهى في هذا .

فوقفت على الرصيف وضحكت حتى نبه ضحكى المارة الذين لم يالفوا
الأصوات المرتفعة ..

وقلت له :

ليتك تدري كم شارع قطعت وكم إشارة خالفت وأنا أتبع خطاك .
خطاى أنا .

نعم خطاك .

وآين كنت ؟

وراءك ...

ورائى من ايرل سكوت !!

لا !

آين ؟

من المطار .

أرايتنى تائها فى أزقة لندن وحسبتنى مجنونا .

لا بل رأيت جنونك وأنت تشير إلى السماء وكأنك تناجى ربك . حسنا
حسنا .

قال فى ابتسامة حلوة هادئة تأسر القلب وتملكه «لولا أنى رأيتك لسرت
حتى الصباح فى شوارع لندن» .

لماذا ؟ وخرجت الكلمة بانفعال عميق واستغراب صادق .

هل كنت تسير فى درب الذكريات الجديدة . فقد كنت فى العام الماضى
فى لندن . وإن لم نلتق .

ليست لي ذكريات فقد وأدتها منذ أن عدت إلى موطني وركنت إلى العمل وإلى لقمة العيش فأنا مهندس ولولا أن كليتك مقابل كليتي لما تعرفت عليك .

أجل كنت تحضر حفلاتنا من أجلها ؟ ! فلها الفضل في أن تعرفت على الكلية .

فضحك وقال : إنها بخير وماتزال تسأل عنك في كل سفرة . وعاد إلى حديثه :

أعمال في الهندسة تستغرق كل وقتي وهو موزع بين الزبائن والاستشارات وبين تلاوين من المغامرات والذكريات . وأحسست بأن صاحبي عاد طالبا في الجامعة عندما برقت عيناه بالسعادة وكأن قلبه عاد يتذوق أفوايق الهنا . فحلا حديثه وبدأت شفتاه تفصحان وتلمسان الذكريات لينعم في حديثه وكانت كل جارحة من جوارحه سعيدة هائلة رضية فقد عادت نسيمات الرواء إلى روحه وومضات الأمل إلى قلبه . إنه واضح الألفاظ حلو النبرات . جميل الحديث وكأن قلبه كان بين شفتيه يتحدث بفرح وغبطة وسرور . عاد إلى السنين الطويلة التي مرت كالحلم الجميل والهواء العذب البليل . عدنا ثانية إلى الذكريات العذاب وكأنما لا نريد أن تكون لها ضرة أو منافسة .. وما أجمل أن يسترد الأصدقاء أيام الشباب الحلوة بطراوتها وعذوبتها فكل شيء يبدو حلوا وأنسام العمر ترف بليلة من جديد وتنسى كل ساعات الحزن ولا تبقى ساعات الهموم .

إنها أيام الشباب حلوة ذكرياته ترف كالحلم الجميل في ليل الهموم
وكالصحة في جسم العليل والأمل في بحر يهدد الراكب وباخرته فتسرى في
الأوصال نشوات يحس بالرضا من وجودها والخدر السعيد من إعادتها .

قال الراوى

فى حجرة من شارع (كلارنى كارد كاردن) مطلة على نهاية الشارع . فيها كل ما يحتاج إليه إنسان يعيش منفردا . حمام صغير وقطع أثاث جميلة أنيقة وسريان وما ينبغى للسريين من متاع .

وفى صدر الحجرة مدفأة كانت توقد بالفحم الحجري ثم حولت إلى مدفأة . توقد بالغاز عليها صورة فيها أكثر من إنسان بحجم (البوست كارت) فى إطار أكبر من حجمها مرتين وانتشرت الكتب والأوراق دون ترتيب ولا أناقة . ولما ألقىت النظرة السريعة على حجراته قال . إنها جميلة ، قلت من خير حجر الدراسة فى لندن .

قال : عشت فيها سنتين من أحلى سنى دراستى . ومازلت أحن إليها ولذلك كلما حضرت إلى لندن حاولت الحصول عليها أو على أخرى فى الشارع نفسه .

— لا بد أنها عبقة بالذكريات .

— حلوها ومرها وغرائبها ومتناقضاتها فكم سهرت فيها حتى الفجر أدرس وأحضر ، وكم سهرت فيها إلى مطلع الشمس أقضى نوازع أيام الشباب فما غلبت لذة على دراسة وما غلبت دراسة على لذة . كنت أمتع نفسى حتى إذا

بلغت الحافة من تهديد واجباتي الجامعية أمسكت وعدت إلى مكتبي ونسيت
لذتي حتى إذا تهاويت وكدت أنهار من شدة العمل وكثرته حولت أيامي نحو
السبيل الثاني .

أنا إنسان عرفت حلول الحياة وشهدها وتمتعت بأطايها فما كنت يوما
وحيدا .

ونظرت إلى ركن لم أكن تبيته منذ دخلت الحجرة فوجدته حاويا أنواعا
من المشروبات الغربية والشرقية فن عصير التفاح والبرتقال إلى النبيذ بأشكاله
والوانه إلى البيرة والصودة .. إلى ..

قلت : إنه ذخيرة وكأنك تخشى حصارا حريا .

ضحك وأشار إلى خزانة وجدت فيها أنواعا مختلفة من الأطعمة المعلبة من
لحوم وبقول وفواكه .

قال : أتدرى أنني أحيانا أبقى أسبوعا أو أكثر لا أخرج من هذه الحجرة
فهنا لا أحتاج إلى شيء . كل شيء طوع رغبتى وأنا أجهز ذلك أسبوعيا .
قلت له : أنتم في مصر لا تعرفون اختزان المواد فن أين جئت بهذه
العادة .

- إنك وقد عشت في الإسكندرية والقاهرة تعرف الفلاحين فهم يخزنون
كل شيء عاما عاما .. والإنكليز هنا يشترون الأشياء يوما بيوما أو أسبوعا
أسبوعا لأنهم أمنوا على أنفسهم من الحصار والاحتكار . وأردف قائلا :
أتدرى أن ملكة بريطانيا حين زواجها لم نجد خلال الحرب العظمى

ما يكفيا من بطاقات لشراء جهاز العرس لأنها لم تكن تعطى إلا ما يعطى أى فرد من الشعب فانهالت عليها التبرعات من كل جانب حتى سدت البطاقات جهاز العرس .

طال انتظارى وضاق صدرى لمعرفة سبب وجود صاحبي فى المطار الذى لم يشر إليه وتناساه .

قلت بدون مقدمة :

ماذا كنت تصنع فى المطار ؟ !

فنظر إلى وشرى . وصدق فى وبعد وجوم حسبته دهرا قال : سأحدثك . فلا تكن كثيرا السؤال . وأفهم الأمور كما كنت تفهمها ونحن طلاب .. وكأنه أحس بامتعاظ داخل ساورنى وإن لم يظهر على ..

أتريد الحديث من البداية ؟ أم باقتضاب ؟

فلم أجب إذ مازلت أسترجع وأفكر وأحدث نفسى فانتبهت إليه وقلت : لك ما شئت .

جئت من القاهرة لأقضى عطلة فى لندن أستأنف فيها الذكريات وأستعيد أيام الشباب وهمسات الوجدان وأروى ظمأ القلب والروح .

قلت عابثا : والجسد .. فلم يرد واستمر .

كان الجو جميلا رائعا والسفرة ممتعة فقد استمتعت بمناظر الغيوم وكأنها الأقطان المنشورة أو الأزاهير المبتوثة فى أعالي الجو ولا يكاد الإنسان يحس بالجلال والجمال إلا إذا اهترت مشاعره من روعة عمل الخالق وقدرته وهو فى

الطائرة تنساب بيسر وسهولة فوق الغيوم حتى حطت بنا الطائرة في فرانكفورت في الطريق إلى كولون ودخلنا الجمارك والفحص الطبي فألقيت أحد المصريين الذين لا يعرفون غير العربية محجوزا ولا يعرف كيف يفصح عن نفسه ولا يعرف الألمان بالطبع اللغة العربية كان منظرا لطيفا وأخونا المصرى يخرج من جيبه أوراق النقد ويشير إليها وموظف الصحة يؤشر على ساعده وأخذته إلى الطبيب وتحصن ضد الجدرى ثم أخذته إلى طائرته وأنا أعجب بهذا المحازف كيف يصل إلى هدفه ؟ !

ولما عدت إلى طائرتي كانت في الجو وقد تركتني في الأرض .

كنت مطمئنا كل الاطمئنان على حقائبي لأنى أعرف دقة الغرب وحرص الغريين على أمتعة المسافرين وراحتهن ولما ذهبت إلى استعلامات الشركات قالت إن الحقايب ستجدها في كولون . إن أول طائرة تسافر إليها بعد ثلاث ساعات .. وزأت الموظفة علامة استفهام على وجهي فقالت ثلاث ساعات طويلة لا يمكن أن تبقى في المطار وأنت ضيف الشركة .. فاستدركت رغم أن الغلظة غلطتي .. وضحكت وقالت: رضاكم هو أساس نجاح أعمالنا .. وأخذتني إلى خارج المطار فوجدت سيارة الشركة خالية . ولم يطل بي الانتظار حتى دلفت فتاة . فقال لى السائق إنها ستقضى الساعات نفسها في فرانكفورت لتسافر إلى كولون على الطائرة نفسها .

كان مظهرها غربيا وشرقيا . فيه سحر الشرق وجماله وجاذبية الغرب وأناقته . أسدلت شعرها حرا على كتفيها فزادها فتنة . لها قوام لدن رطيب كأنما صاغه النحات لها أقرب إلى فينوس وإن فاقها . عيناها الصافيتان تشعان

ذكاء وتطفحان رقة وحنانا ، تيهان في جواء من الطيب الشذى ونظراتها
وشعرها الكستنائي الطويل الذي يموج كلما حركت رأسها يضطرب إغراء
فتبدو فيه ألوان شتى من تماوجه تركته دون قيد فلم تجدله ولم تعقسه فزادت
هذه البساطة من فتته وروعته ..

أخذت أتفحص جسمها وأنظر وجهها وأطرافها ، كلما أمعنت في جزء
أكتشف فيه من المفاتن جديدا ..

كانت تتحدث الإنكليزية باللهجة الأمريكية دون أن تبدو عليها أمالة
الغريب وغنة الأجنبي ولعلها درست في أمريكا أو إنكلترا .

غلبني جمالها وبهرتني فتنتها ولم تواتني الشجاعة للتحدث إليها ولكن لا بد
من الحديث إذ لم يكن غيري وغيرها في السيارة الصغيرة وكنا متجاورين
وأحسست كأنني أرض قاحلة أصابها وابل فامتصته كله وأخذت تنظر إلى
السماء فاغرة الفم تستجدي المزيد ولقت نظرها إعجابي الظاهر وصمتي
العميق وابتسمت ، فضحكت الدنيا وطربت لها وسرى ديب من السعادة
خدر روحي وكأنني لم أتحدث إلى فتاة من قبل فأجبتها على ابتسامتها وأردت
أن أفتح في شيء فخرجت الكلمات ولكنها ماتت قبل أن نخرج فسألتني :
من أين أنت !

فواتني شجاعتي ، وعدت إلى عاداتي القديمة في الحديث مع النساء فقد
اجترزت العقبة وذهب الحجاب قلت مشاغبا ومداعبا ، وما زلت مأخوذا بلذة
ما أرى وسعادة ما أحس وشذى ما أشتاق :

هل تقدرين أن تعرفي من أين جئت ؟

من الشرق ؟

جواب سليم ولكن الشرق واسع كبير .

أأنت من الشرق القريب أم البعيد ؟

قلت من القريب إليك !

لى أنا ؟

نعم وكأنك منه .

أنت عربى دون شك .

قلت : أحسنت يا حلوة .

فظهر الارتياح عليها وأخذت تزول الكلفة بيننا .

فأردفت : أعد .

قلت : أحسنت يا حلوة .

فابتسمت وقالت :

أترافى حلوة بالمعيار الشرق أم الغربى ؟

فى المعيارين وبمعىارى أنا .

هل لك معيار خاص يخالف الشرق والغرب .

أجل ..

هل أعرف هذا المعيار .

قلت : فتنة الشرق وبراءته وحضارة الغرب وثقافته .

أنت من القاهرة .

أحسنت أحسنت كيف عرفت ؟

سمعت أن المصريين جميل غزلهم ويفوقون الايطاليين ..
فضحكت وقلت : كل الرجال يجب أن يحسنوا الغزل ومن لا يحسن
الغزل فسوف يتعلم من عينيك ويتخرج على فنتك وجمالك .
فضحكت ومالت على سرورا واحتك كتفها بكتفى ودارت السيارة دورة
فزادت لصوقا بي وكأنها لا تريد فكাকা .
فسبحت بنشوة حيوية ولذة غريبة وكأنى أشم عطر العالم وأنثشى من لذة
الدنيا كلها وشعرت بكيانى يهتز وروحي تسرح فى أجواء من الخيال الحبيب
وكانت السيارة تسير بنا متجهة إلى فرنكفورت قلت لها :
ما اسمك ؟

أجابت وطيف ابتسامة حائلة على شفثها :
قفزت فى الأسئلة . لم تسأل عن موطنى كما سألتك . أتريد اختصار
الأسئلة والدرب ما زال طويلا أم تريد اسمى ؟

قلت : كلاهما .
قالت : من أسبانيا واسمى نورية .
نورية !!
وأحست بالدهشة ترتسم على وجهى .
فقد شعرت بقشعريرة تسرى فى مفاصلى وبخدر عميق يدب فى جسمى
كله وعدت أقول بلهفة وتعجب :
نورية !!

قالت : نعم اسمى نورية .

قلت : كيف يكون هذا اسمك وأنت أسبانية .

قالت : وأمى نورية ، وجدتي نورية ، وسأسمى أول بنت لى نورية .
وسأوصيها بأن تسمى أول بنت لها نورية .

وسكنت لترى علائم الدهشة والاستغراب على وجهي ثم أردفت ببساطة
ودون تكلف :

هكذا عادتنا . ولا أعرف كيف بدأت القصة واستمرت بدون اكتراث
وأرادت أن تبعد القصة عن ذهني وكأنها قصة خرافية لا أطمئن إليها أو
أسطورة من الأساطير التي سوف أسخر منها إن لم أكن سخرت .

إنها العادات . ونحن أسرى العادات والتقاليد . فكم من عادة ورثناها
دون أن نقدر على التخلص منها وعلام نتركها مادامت لا تعود علينا
بالأذى ..

ولم أجب وشردت في حضارة العرب وفي فتوح المسلمين وبطولاتنا . ولم
تدر كيف أثارت شجن الروح وأحزان القرون في قلبي . وحلقت في دنيا حلوة
زاخرة بالفخر عبقة بالعزة والمكارم كيف وصل العرب على خيولهم وجماهم إلى
الأندلس وتركوا فيها أجمل الذكريات . أليست نورية من تلك الذكريات ؟
أليست العربية الأولى وكأن جدتها أرادت أن تخلد ذكرها بعد أن ضاع المجد
العربي فكانت إرادة سيدة عربية أقوى من إرادة الجيوش والأسلحة والدويلات
المتفرقة وملوك الطوائف المتنازعين .

آمنت نورية بتعليق سرها اهتمامي ولهفتي وقالت : أعرف أن أحد

أجدادى جاء من الجنوب وسكن مدريد فنحن أقرباء ثم نظرت إلى من طرف
عينها وغمزت بحاجب واحد ويالها من غمزة ونظرة ..

ودخلنا فرانكفورت فما شاهدت مدينة أجمل منها في الدنيا ولا أعرف
أجمل منها اليوم .. ثلاث ساعات تجولنا فيها ودخلنا حديقة عامة فيها وكان
الأحبة اثنين اثنين وأخذت ذراعى وتوسدت عليه ثم نظرت إلى في الحديقة
ونحن نسير تحت ظلال أشجارها وقالت :

عجيب .. هذا اللقاء هل كنت تقدر أن تلقانى ؟
لا ولكن الحياة حافلة بكل عجيب .. وجميل .. ولذيذ ..

أحقا ما قلت ؟ ثم ضحكت وقالت :

سحرتنى بلقائك ..

أجمل تحية أسمعها من سيدة أو آنسة ؟

قالت آنسة . وأردفت .

لم تقل لى ما اسمك ؟ وأصبحنا أكثر من المعارف بل أصدقاء منذ قفزنا
حواجز الزمن وكأنى أعرفك من عهد بعيد . قلت دعى الزمن يسير واتركى
الساعة جانبا ، نريد أن نختلس منه دون أن يدرى ودون أن ندرى ثم
أردفت :

هل كامل .. هو الجمل قلت اختلط عليك فالجمل : (كامليوس درو
مداريوس) والفرق بعيد بين الإثنين ولا يأنف العربى من أن يكون جملا بل

تمنى شاعر عاشق أن يكون جملا أجرب يعيش مع حبيبته الجرباء حتى
لا يدانيهما إنسان .

قالت : إنه منتهى الحب والإخلاص إنها البساطة ولكنها الحب العميق
الصادق .

قلت : لكن النقاد لا يرضون عن هذا الخيال لأنه أساء إليها .

قالت : دع النقاد وشأنهم وعش مع مشاعر الشاعر وأحاسيسه والجو الذى
عاش فيه وما يحوطه به ثم احكم بعد ذلك ..

واقتربنا من بحيرة ضحلة جميلة فيها نافورة يتطاير منها الماء جدلا ويتسابق
في كبد السماء كأنه الحائم البيض تشملها النشوة عندما تطلق من قفص
مربىها .

وجلست على حافة البحيرة وخلعت حذاءها وجواربها وأدلت رجلها في
الماء ودفعتنى بشدة إلى الوراء وأخذت حذائى لتزعه .

قلت : مهلا مهلا . وخلعت الحذاء .

وسرنا وسط البحيرة الجميلة مع أكثر مع حبيين يتراشقان بالماء ويضحك
لها الموج وتندفع التيارات التى تسببها حركات الأرجل إلى هنا وهناك وترتطم
بالحافة رعبا فتكون سورا أبيض اللون جميلا ..

وهتفت بلا وعى :

سوف تفوتنا الطيارة مرة أخرى .

قلت : هذا ما أتمناه .

لماذا ؟

لكى نعيش وقتا أطول سوية .

قالت: يمكن أن نعيش سوية ونحن في وجهتنا التي نذهب إليها هيا ..
وأسرعنا ركضاً إلى باب الحديقة التي كانت قريبة من محل الشركة وكانت
السيارة على أهبة السفر .

ولما أفلتتا الطائرة ، أحسست بيد تفتش عن الحزام وتضعه بيدي وهي
تقول :

عد إلى عالمك الواقعي واربط حزامك .

كانت السفرة ممتعة وكان حديثها يزيد المتعة لذة واللذة نشوة والنشوة حياة
والحياة شباباً وأملاً . أخذت تتوغل في قلبي كالبذرة الصغيرة العامة التي تريد
أن تنمو بسرعة وتغرس جذورها في روعي وكياني كالطفل الصغير الذي يريد
أن يكبر ويتخذ كل الأساليب ليبدو رجلاً أو كالفتاة المراهقة لتكون سيدة .
بذرة عجيبة أحس بأوراقها تخرج من الأغصان وأحس بالأغصان تكبر في
الشجرة وأحس بالشجرة وهي تسابق الشمس والماء والهواء وتلتهم مكوناتها
بشراهة ونهم ..

وأخذ صوتها يرق ونظراتها النافرة الشاردة تلين وتستكين وأخذت يدها بين
يدي فاهتزت واهتز جسمي معها وكأننا نعيش في المحيط المتجمد الشمالى .

قلت : ألم ترى رجلاً من قبل ؟

قالت : ألم تر امرأة من قبل ؟

فسكتنا وضغطت الأيدي بعنف وشدة وعشنا في عالم جميل بعيد عن
الكلام والحديث . في عالم لا نهائى لم نعرف منتهاه .. كنا نريد أن نعيش في
غير هذا العالم .. بعيدا عن الناس لارتشاف هذا الحب الجديد قطرة قطرة
لأطيل سعادتي ولأسعد حياتي بها وأنتشى أطول وقت ممكن .

ونسينا العالم كله . وكنا نتمنى ألا تصل الطائرة إلى مستقرها . ألسنا فوق
أعلى الأعلى كالملائكة نعيش في دنيا أخرى ؟ ألسنا في السماء ؟

فى كولون

هنا كولون سوف نصل إليها بعد خمس دقائق .
أرجو ربط الأحزمة والامتناع عن التدخين .
فأربد وجهى ونظرت إلى وجهها فوجدته قد استغشى بغمامة من الألم
وسمعتها تنهد وتزفر زفرة كادت تحرق الطائرة وأججت فى الحنايا أتونا وهيبا .
قلت :

مالك يا نورية ؟
ما أسرع ما وصلنا كولون .
ثم برقت عيناها فجأة وقالت :
إلى أين تذهب .. أقصد أين ستسكن ؟
سأسكن معك هل عندك مانع ؟
ما زالت عندى أيام أخرى قبل عودتى إلى وجهتى وعندى عطلة .. ورق
صوتها وعذبت نبراتنا ووضع يدها على كتفى وقالت خذنى معك يا كامل .
كان عرضا من أجمل عروض الدنيا على نفسى .
قلت : أتقرئين الأفكار ؟
أنت ضيفة عندى فى مدينة كولون .
وأنت ضيفى وأردفت بنجبت جميل هل تحبى ..

نحن نحب بعضنا بعضا . وإلا لما قرأت أفكارى وقرأت أفكارك فما
الأرواح إلا أتحدث الآراء والأفكار .

قلت : أنت معى أينما أكون فقد دخلت عمارة القلب كلها .
أمرك مطاع وسوف أمثل أمر القلب .

قالت : الرجال يأملون فى بلدنا مثل بلدكم ونحن النسوة نطيع . وبنت
المرأة التى تريد أن تكون رجلا وتضيق أنوثتها ولن تصل إلى ما تريد .
وفى مطار كولون أخذتنا السيارة إلى المدينة ثم إلى فندق برلين .. وقد خيم
الليل بسكونه وهدوئه .

* * *

كان صاحبي يحدثنى ونسى نفسه وسرعان ما قام معذرا وأخرج كأسين من
ركن وملاهما وقال :

اشرب شراب أهل الجنة فى الدنيا .

قلت لا أشرب كما تعرف .

ألم تتغير بعد وتتطور أو تتحضر وتمدن !!

ليست الحضارة والتطور بمظاهر المدنية . إنما باللباب وأخذ ما يعود علينا
بالخير لماذا نهتم بقشورها ولا نكثر بمزاياها الحضارية والثقافية .

فشأنك شأن الشرق الذى يصل إلى لندن ويخلع ملابسه الوطنية ثم يشتري
غليوناً وقبعة ومظلة ويظن أن هذه هى مظاهر الحضارة .

أما الهندية فتبقى أول أيامها بملابسها الوطنية وحذائها الصينى وعندما يأتى

البرد تسارع بشراء الملابس لتجلب لجسمها الدفء وتقنع نفسها بارتداء
السارى تحت هذه الملابس السميقة . فضحك بصوت داعبت البساطة
الحلوة صوته وقال :

إذا كنت لا تشرب ولا تقامر ولا تعاشر لماذا تعيش فى الدنيا .. ثم التفت
إلى وقال .. ولا تدخن .

قلت رويدك فأنا أعاشر وأحب العشرة وليس سواها تبعد غربى وتملأ
روحى الظمأى من هذه الوحدة فى بلاد المادية البهتة ..

ثم أضاف ما صبه فى كأس على شرابه وجلب لى كأسا نظيفة مع كأس
أخرى .

وكان منصرفا كل الانصراف إلى إعداد الشراب فقد وضع فى الكأس
الثانية مثل ما صب فى الأولى .. فكانت أمامى ثلاث كؤوس مترعة اثنتان
بالنبىذ الأبيض وواحدة بالعصير .

قلت ألا تكفيك الكأس الواحدة حتى تملأ اثنتين مرة واحدة . هل هى
متعة النظر أم المتعة المضاعفة فى الكأسين .

فنظر إلى بعتاب مرير وقال صدق الله العظيم إنك لن تستطيع معى صبرا .

قلت حمرة وآى الذكر الحكيم .

قال : يا صاحبي ،

أنا أشرب وأدخن وأقامر وأعمل ما يطيب لى أمام الناس لأنى صريح كل
الصراحة ولن أكون منافقا مثل الساسة يعملون شيئا فى الظاهر ويكتمون

الحقيقة في الباطن وهذه بليتي مع الناس أتدري أن (جلالا) الذي عرفناه في الجامعة يصلى ويصوم ؟ لقد أصبح في مركز مرموق في الدولة وصار وزيرا مزمنا . كان في عهد الملك فاروق يتقرب إلى وزير التربية ثم تزوج قريبة مسؤول له صلة بالملك ولما ذهبت الملكية وجدته مع الثائرين يتقلب . فهو مع الإخوان المسلمين مسلم ومع القوميين قومي ومع الشيوعيين تقدمي ومع الدولة الخادم المطيع .

إنه يعيش . وها هو يتجبر ويحكم ولا تقدر حتى على مواجهته . قلت : إنسان أضاع كرامته في سبيل منصبه وسوف يسقط وتسمع لسقوطه دويا في نفسه .

قال مثل هؤلاء يجدون أسيادا جددًا .

أتدري أنه تخلف في السنة الرابعة ولكنه بأسلوبه تمكن من إقناع الأساتذة ونجح .

لا تنس أنه في قرارة نفسه يشعر بالخزي والصغار .

وما أهمية ذلك ما دام قد تمتع بكل ما تتوق إليه النفوس : المنصب الكبير والمال الوفير والسفرات الرسمية والاحترامات حين يستقبل وحين يودع والشهرة بين الساسة .

ما جئنا للبحث عن مشكلات المجتمع ففي كل مجتمع متخلف يعيش الانتهازي والبهلوان لا الذي امتلأ ثقة بعلمه ونفسه وأدبه وفضله واحترم علمه وهو مالا يريده الحاكمون فهم يكرهونه ويبعدونه وإن كانوا يرونه كبيرا ويهابونه .

وشرب كأسه الأولى ثم صاح ضاحكا :

يا نورية .

. قلت رحمك الله هيا إلى حديثك الطلى فهو نسمة المحبين بعد الهجر ورقة
الرحمة على الخاطئين .

فسكت واطبق شفثيه ثم زمها وتجهم وطال سكوته حتى شمت أن يسرح
في الخيال وكدت أثور عليه لولا أن وجدت أسارير وجهه تنفرج وبدأ يشرق
ويبتسم وقال :

نزلت ونورية في برلين أقصد فندق (برلينو) في كولون حيث وجدت
غرفتين متجاورتين وكانت سفرى طويلة إذ خرجت في الصباح الباكر ووصلت
بعد منتصف الليل لكن إرهاق الطائرة وسأم السفر قد ضاعا بصحبها .
وودعتنى عند باب الغرفة بجمارة وقلت سنلتق في الصباح في فناء
الفندق ...

وأسرعت إلى الفراش وكأنى قطعة من حجر أتوق الثبات على الأرض .
وما احتوانى الفراش حتى رن جرس الهاتف .

وعجبت من الأمر لعل مدير الفندق يطلب شيئا وفي لحظة كان الصوت
المنساب حدا فاصلا للتفكير فقد اهتزت سماعة التليفون نشوة ورقصت
الأسلاك سعادة وارتاحت روحى وانتشت جوارحى .

قالت :

نسيت أن أقول لك تصبح على خير .. وأحلام سعيدة . وبعد فترة

صمت . سمعت صوتها يفيض أنوثة ويطفح بالدفع يقول :

يا حبيبي بلهجة أندلسية .

إنها أجمل لفظة سمعتها بهذا العمق والصدق والعاطفة المشوبة إنها أشهى
الأنغام وأحلى الموسيقى ثم قالت :

في أية شقة مكاني في عمارتك ..

قلت : أنا لا أملك عمارة ولست أفكر في يوم من الأيام أن أمتلك عمارة .

قالت : ألسنت مهندسا .

قلت : بلى .

قالت : ألم تقل لي أنك ملكت عمارة قلبي فأين يذهب الساكنون في الشقق ؟

انتهت وأخذت أداعيها وقلت .

أتدريين أن إحدى الصديقات سألتني يوما أن أؤجر لها شقة في قلبي فقلت
لها : أنت طموح . فقالت : لماذا ؟ قلت عليك أن تستأجري غرفة في عمارة
هذا القلب .

قالت : أعرف مقدار المعجبات بك .

فانساب صوتها وهي تقول :

أنا غنية .. لن أدع سواي يأخذ هذه العمارة إنها لي .

أرجو لك أحلاما سعيدة وحذار أن تؤجر غرفة واحدة في أحلام الليلة .

ووضعت السماعة .. ونامت همسات الليل .. وهدأت أحاسيس الحياة .

ولكنني لم أنم وحدي إنما نامت الفرحة والسرور والغبطة معي وما أجمل ليل

الفرح وشعور الروح باللذة الغامرة . إنها أجمل الليالى وأحلاها إنها العمر كله
بل أجمل من العمر كله .

رن جرس التليفون فى الصباح فأفزعنى وبدون وعى وضعت الساعة على
أذنى .

صباح الخير.. فلم أجب .

صباح الخير.. يا كامل .

صباح الفل والزهر والياسمين وأزهار الرياض فى الدنيا كلها .

هل سكت لتجمع الرياض وتقدمها لى ؟

إنها خجلى منك لأنها جزء من جمالك وتعيش على شذاك

هل رأيت أحلاما سعيدة ؟

كلها سعادة .

أردت أن أوقظك عند منتصف الليل فقد استيقظت ووجدت نفسى قد
أخذت قسطا كافيا من النوم ولكننى عدلت لأنى أعرف أنك آت من بعيد
وقد أرهقتك السفر .

بالفعل . ولولاك لكانت مرهقة . وأحمد الصدف أن تأخرت . ولعل
الله أراد أن يحزنى خيرا لأنى خدمت إنسانا دون أن أعرفه فى المطار وكان
تائها .

ألم يكن عربيا ؟

بلى .

كيف لا تعرفه إذن ؟

وحررت في الجواب وقد غمرتني بالذكاء اللامع ثم استدركت لو كان هذا أسبانيا أو إنكليزيا أو تركيا لما ترددت في مساعدته .

قالت : ربما جوزيت على عمل قتت به دون أن يلمس عواطفك هل أنت جاهز للإفطار ؟

- في دقائق

وضعت السماعة ودخلت الحمام وما خرجت منه إلا وجدتها قد نامت في فراشي وغطت نفسها وقالت أريد أن أحس بوجودك أريد أن أحس بكل كيائك أريد أن أحلم الأحلام التي رأيتهما البارحة أريد أن أضع خدي على وسادتك .

وأخذت تختار لي ما ينبغي أن أرتدى من ملابسى وربطت لي رباطى ونظرت إلى من أعلى إلى أسفل وتلفتت حولى يمينة ويسرة ثم قالت : هيا إلى الخارج الآن ووضعت يدها تحت إبطى وأخذت مفتاح الغرفة وأغلقتها ثم ضحكت قائلة :

تفضل ياسيدى أمتك يا هارون الرشيد أو يا شيخ العرب أيهما تحب ؟ لا أعرف كيف تناولت الإفطار وما أحسست إلا بأنى آكل وأشرب أما لون الطعام ومذاقه وشكله فما رأيته . كنت أنظر إليها وهى تأكل وأمتع نفسى وهى ترشف الشاى . وكان الشاى والطعام والمائدة وكل ما حولها سعيدا بها مفتونا حتى الندل طفق يطيل النظر إليها وكاد أن يقع منه حمله . وعمال

الفندق كانوا يرحبون بها ويحبونها فاغتنبت بكل هذا وقالت :

هل تعودت النزول في هذا الفندق ؟

قلت هذه هي المرة الثانية

قالت : يعرفك الخدم ويقدرّون زيارتك وأنا أحس ذلك من هذه العناية الكبيرة بي .

قلت :

سيدتي إنما زاد التقدير حين جئت معي . فلقد سحرت الجو كله .

قالت عدنا للمجاملات والكلام الجميل ثم انتشت برقة ولطف وقالت :

كامل . لماذا لا تكون شاعرا ، إنك في بلاد الشعر ولقد قرأت ألف ليلة وليلة وأخذتني لياليها وحسانها وما فيها من دقة الوصف والشاعرية .

قلت : هذا كل ما تعرفين عن الشرق ؟

لماذا قلت لي هارون الرشيد وشيخ العرب

لماذا لم تقولي لي فاروق أو ...

قالت لا أعرف عن العرب إلا ألف ليلة وليلة .

أما مصر فأعرفها إنها بلد الفراعنة وأخشى أن أسميك باسم فرعون مثل رمسيس أو تحتمس .

قلت : أحسنت وأحسنت .

وتركنا المطعم ولم تكن لنا وجهة مقصودة فالدنيا كلها ملكنا وسرنا حتى

وصلنا نهر الراين . قالت أهذا هو الدانوب ؟ قلت بل هو الراين .

وعلى مياه الدانوب نظم شتراوس اللحن المشهور الدانوب الأزرق وليته
يعود للحياة إذن لغير الأسم وسماء الدانوب القذر الأسود فقد عاثت المدنية
والخضارة فيه وأخذت ترمى نفايات المصانع حتى استحال الماء أسود اللون
ودفنت الأسماك فيه .

هل لك فى سفرة على نهر الراين ؟

قالت : كل شىء معك حلو جميل .

أجبتها : عدنا شاعرين خياليين .

قالت : خير الناس الشعراء فهم أصدق إحساسا وأعمق عاطفة من البشر
أجمعين . قلت : تريدان كل فنان .

قالت : هى صفة الفنان ولكن الشاعر أبرز فى العاطفة وأصدق من غيره
تعبيرا .

قلت : لكن الشعراء فى بلدى اتخذوا من الشعر وسيلة للكذب على
الجاهير فدحوا الملوك والسلاطين والسلطة واتخذوا الشعر وسيلة لأغراضهم
الخاصة . قالت : ليسوا إذن من أرباب الفن إنهم صناع ، وشتان بين الفنان
والصانع .

وجلسنا ننتظر السفينة التى تقلنا من كولون إلى (كوبلنز) ثم التفتت إلى
وقالت :

حتى هذه اللحظة لم تعرف من أنا .

ولم أعرف من أنت ؟

قلت : هل هناك أعمق من هذه المعرفة هينى إنسانا لا ماضى له خرج

من البحر وتحدث إليك ألم تشعرى بالسعادة معى ؟

فقلت : بلى كل السعادة .

وأنا أشد ما أكون سعادة بك معى .

قالت : لا أريد أن أكون مثلكم أيها العرب تسأل عن الأحباب والأنساب والأمهات والآباء وإذا أخطأ إنسان فى القبيلة وبخاصة المرأة أصاب العار كل الأسرة أو القبيلة إنما أردت أن تحدثنى عن نفسك فى الحديث راحة لنا .
قلت : يا سيدتى .

أنا خريج كلية الهندسة فى الإسكندرية وقد عملت خارج الدولة فى الهندسة المعمارية ثم أتيت لى الدراسة فى لندن . حيث أكملت الدراسة العليا فيها ..

هل تجد لذة فى الهندسة والعمل ؟

ألا نحس بالارهاق حين ترسم خارطة بيت أو مؤسسة ؟
لست صانعا إنما اتخذت الهندسة هواية لى ، ولهذا فأنا أعشق عملى ولا أحس بالحياة بغير العمل ولذتى فى هوايتى التى هى الآن حرفتى .. ويبدو لى أن المختصين يضعوننى فى مقدمة المهندسين فى بلادى فقد أعجب الكثيرون بما أنشأت ونلت تقدير المهندسين فى العالم بل الحق أقول أن المختصين من خارج العرب هم أكثر صلة بأعمالى .

كم عمارة أو مؤسسة أنجزت فى حياتك ؟

قلت أعمالى كثيرة ولا يمكن حصرها . كان رائدى الأول أن أجىء بشىء جديد ، وقد وفقت إلى الجديد فكل بناء كبير له أسلوب خاص وهندسة

متميزة وتخطيط يختلف عن غيره من الأعمال ، ويسعدنى أن أصبحت لى مدرسة يقتدى بها المهندسون الجدد ويسيرون فى هدى أعمالى بل يسرقون منها ويعيشون على هذه السرقة .

أيسرقون منك ؟ ولماذا لا تقاضيهـم ؟

المهندسون يعرفون أننى أول من أسس هذا النوع من العمارات وأنا أول من فتح هذه الطرق ولا تخفى خافية على الدارس الباحث فى أصول الفن المعمارى ، كما أنى أجد لذة فى أن اسرق ، فعنى ذلك أن لى شيئاً كبيراً يستحق أن يسرقه المهندس الجديد ..

- أما أنت يا فانتنى

- أنا باختصار طيبة تخرجت فى مدريد وأكملت دراستى فى أمريكا واختصاصى الأمراض العصبية والنفسية .

قلت : أحمد الله فقد أمانا المرض فبالله عليك ألا تعالجين مجنوننا فى هواك .
قالت : هذا جنون أرجو أن أصاب به إنه شىء لذيذ ولن أشفيك منـه
وسوف أزيدك هوسا وجنوناً .

وما أن رست السفينة حتى صعدنا إليها .

* * *

إلى كوبلنز

كانت الباخرة من بواخر السياحة الصيفية التي يجتمع فيها الركاب وقد غطيت بغطاء زجاجي يشف عما وراءه . جلس السياح في صمت حيث كان قائد الرحلة أو المذيع يتحدث عن نهر الراين وما على ضفافه من قصور وقلاع . كانت يوما مساكن نبلاء الإقطاع وقادته . وكانت المناظر حلوة جميلة ، وكنا ننظر إلى شريط سينمائي حيث الجبال الشاهقة والبنائات الجميلة والمروج الخضراء التي كست الروابي والبطاح فلا نرى غير خطوط المواصلات السوداء تنساب بينها .

وجاء الندل وبدأ شراب الراين يعمل عمله في الراكبين وعلا الضجيج والحديث وسرعان ما التأم الركب المبعثر في أغاني ألمانية عذبة حلوة ولما ساهم الجميع في الإنشاد وكانت قد انسابت الخمرة في الرؤوس ودبت الجسوم وأصبح الجالسون مجتمعاً جديداً كله صداقة وود أحسست بيد بضعة رقيقة تمسكني وتضع يدها تحت إبطي . ووجدت الجالسين يهتزون يمنة ويسرة على أصوات الموسيقى فأخذت يد نورية تحت إبطي وأخذنا نهتمز معهم ونضحك معهم ونسناكل شيء .

وأعلن وقت الاستراحة وتقديم بعض الطعام الخفيف فالتفت إلى الألماني الذي يجلس إلى جانب هذه السيدة الألمانية الجميلة وقال أنا الهر بيديرمان .

قلت: الاسم معروف فقد ورد في رواية للكاتب السويسري ماكس فريش .

والقيت نظرة سريعة على وجهه فألفيت مظاهر الطيبة واللفظ وسرعة الود الذي حباننا به قال :

أتعرف ما معنى اسمي في اللغة الألمانية ؟
إنه الرجل النبيل الشريف .

قلت : له يظهر الاسم على محياك .
قالت : شكرا .

قلت : أنا مهندس لكنني أحب الأدب وأتبع كتبه وأستفيد منه كثيرا .
ثم التفت إلى زوجها وقال : والتي بجانبك زوجتي .
قلت : اسمي كامل .

وهذه الدكتورة نورية من أسبانيا ونحن أصدقاء .
قالت السيدة الألمانية :

كأنكما زوجان يصلح أحكما للآخر ..
قالت : أرجو أن يكون ذلك .

ورفعت يدي إلى السماء وقلت :
آمين .

وسرعان ما رفعت هي وزوجها الأيدي بكل إخلاص وصدق وقالوا
بصوت عميق .. آمين .

وأستأنف الألماني القول : أنا لست أديبا ولكنني مهندس سيارات وأحب

التاريخ وأتبعه وعندى مكتبة فى التاريخ المعاصر . وأحاول أن أتعرف على العالم بعد أن أصبح الكون صغيرا .

وعندما كان الحديث يدور بينى وبين بيدرمان قلت للزوجة هل تريدین أن تتحدثی مع الدكتورة ونحن نتحدث فى السياسة والفكر فضحكت وقالت : أعتقد أن الرجال هم وحدهم يتحدثون فى الأمور العامة والسياسة ونحن نتحدث فى الأزياء والطعام ؟

فشعرت بأننى غلطت وأنا فى أوروبا .

ثم استدركت وقالت :

إن السياسة قاتلة وهى التى جنت علينا وأصبح الوطن الألمانى محتلا ومجزءا .. وقد انتصر علينا اليهود . وأحسست بالكلمة تنقطع بين شفتيها .

ولما شعرت بالارتياح الذى بدا على وجهى قالت هل تحب اليهود ؟ .

قلت : لا أكره شعبا من شعوب العالم .

ولكنى أكره الأعمال التى تقوم بها جماعة من اليهود وأكره الصهيونية لأنها اعتدائية .

قالت : لا أظن فى الدنيا يهوديا ليس صهيونيا .

قلت لها : لا أوافقك على هذا الظن .. فى العالم وفى أمريكا التى تحتل بلادكم خاصة جماعات كثيرة تقف ضد الصهيونية .

قالت : هؤلاء يخافون على اليهود لأن النهاية حتمية فالاعتداءات المتكررة على الألمان خير دليل على أن الشعب الألمانى سوف يقضى على اليهود .

تصور أننا لا نقدر أن نتحدث بشيء ضد أى يهودى .
قلت : أعرف .

كنت قبل يومين فى بون ورأيت يهوديا يعتدى على ألمانى ولكنه لم يرد عليه
الاعتداء .

قالت : لورد لأتهم بالعداء للسامية وأخذ إلى المحاكم وكانت النتيجة
السجن .

قلت : أن اليهود هم الذين يحكمون ألمانيا .

قالت : ذلكم هو الصواب ولكن العرب لا يريدون أن يعرفوا هذه الحقيقة
فهل يحكم الشعب الألمانى نفسه وهذه جيوش الحلفاء تحتل أراضينا وتقسم
الوطن الألمانى إلى عدة دول . والتفت زوجها وقال بصوت منخفض :

الزا خفضى من صوتك وابتعدى عن السياسة واليهود . فربما كان هنا من
يسمع وتكون مشكلة . ثم نادى بأعلى صوته على الحساء التى تسقى ركاب
البخرة وسألنا إن كنا نقبل دعوته للشراب فوافقنا مسرورين .

قال : ما تشرب .

قلت : (موسل) .

قال : وأنا موسل .

فردت نورية : موسل .

ونظرت الزا إلينا وقالت بعجلة وابتهاج : موسل .

ثم نظر إلى وقال :

هل تحب الشراب ؟

قلت : الحياة شراب ونساء وجهال الطبيعة .

فقام ضاحكا ورفع كأسه وقال :

بصحة المصرى وليدم قوله .

الشراب والنساء والطبيعة الجميلة .

فلكرته الزا وقالت :

النساء !!

فنظر إلى ضاحكا وقال المرأة الواحدة !

وكان السكر قد أخذ منه مأخذا وانطلق بكل حريته وقال : هر كامل .

قلت : نعم .

قال : نحية للنبي محمد .

قلت : هل عمل لك عملا .

قال : فهم الحياة فهم الرجل وفهم المرأة وفهم المجتمع الإنسانى ولذلك

فإن دين محمد خير الأديان .

قلت : أترى أنه دين البساطة والمجتمع والحياة ؟

قال : لا .

قلت : إذن ما أهم ما لفت نظرك فى دين محمد ؟

قال : دعنا من القضايا الاقتصادية والدينية إنما أريد أن أحدثك عن

المجتمع .

قلت : عن أى شىء .

قال : عندما أباح لكم الزواج بأكثر من واحدة .

فإذا بالزا تصرح : إنه ظلم . لماذا أباح للرجل أن يتزوج أربع زوجات ولم يسمح للمرأة في زوجين .

أصبحت القضية مشكلة فكرية يهاجم منها أعداء العرب والإسلام الرسول من هذا الباب فعلى أن أحترس في القول وأوضح لهم الأمر .

فانفلتت الدكتورة نورية قائلة :
أنا لا أمانع أن يتزوجني كامل وإن كانت له أعداد من الحريم . ثم التفتت الزا إلى زوجها وقالت : وقد لعب النيذ في رأسها هل تأخذني يا هر كامل زوجة أخرى وأرتاح من عناء العمل ليل نهار وأكون في بيتي .

هل تعطيني بيتا أو غرفة أو قصرا .
قلت : الافتراض بعيد عن الواقع ومع اعجابي بذوق زوجك وحسن اختياره ..

فرد زوجها وقد أخذت الخمرة مأخذها :
أنا متنازل عنها أرسل لي جارية من جواريك بدلا عنها .
قالت : إنى أوافق لأنى أريد أن أذهب إلى الشرق . قلت : إذن فلم يعجبك شكلى إنما رغبتك في الشرق هي التى دعتك إلى مجاملتى . قالت بصوت هادئ وهي تهمس :

لابد من مجاملة عواطف زوجي .

ولما شعرت نورية أن الزا تقربت إلى وهي تهمس في أذنى قرصتنى في

فخذى قرصة كادت أن تدميني دون شك لأنى أحسست لذعة النار رغم
الشراب الذى شربناه طوال السفرة .

وسرعان ما أعلن المذيع عن وصلة جديدة للغناء والموسيقى واتحد الجميع
فى غنائهم وأخذوا يتمايلون وأحسست بأن الزا صارت أكثر قربا إلى جسمى من
ذى قبل ولصقت كل جسمها بى وبالحراة تسرى فيها وفى الجانب الثانى
كانت نورية أشد حنينا وشوقا والتصاقا وقد أخذت الخمرة تعبث بنا ولا ندرى
كيف وصلنا فقد سمعنا المذيع يرجو الراكبين التزول إلى الساحل فأمسكت بى
الزا وقالت : إلى أين أنت ذاهب . قلت : سأعود إلى كولون هذا اليوم .

قالت : ونحن سنعود معكم فلا تهرب منى .
ثم انفلتت هى وزوجها وضاعت مع النازلين على أرض كوبلتر .
ونظرت إلى نورية وقالت بتنهيد : أحمد الله .

وقالت : كأنك أحبيتها .
قلت : معاذ الله .
قالت : كانت تنظر إليك بعشق وهيام .
قلت : تريد التغير .

قالت : وزوجها كان يتمنى ذلك .
قلت : مغفل .
قالت : لأنه كان يريد أن أذهب معه .

قلت : لن يكون .
قالت : أفهمت .
قلت : بدون غيرة .

وأخذتني بكل حنان وحب وطبعت على خدى قبلة حارة وقالت هيا نخرج
فلم يبق إلا عدد ضئيل على ظهر الباخرة من الركاب .

ونزلنا على اليابسة .

وكانت نورية تملأ الدنيا وكأننى أريد أن أقول أيها الإخوان تعالوا إلى
كوبلتز لتروا هذه السعادة . ألا يوجد مصرى واحد يرى أنى أمشى مع نورية
سيكون شاهدا عندى للأصحاب ليصف هذا الجمال الأخاذ فى القاهرة . ثم
استرجع وأقول الحمد لله لعدم وجود مثل هؤلاء وإلا كان أول عمل يعمله أن
يغازلها ويتحدث عنى ويختلق الأباطيل يريد لها لنفسه وكأن ألمانيا خلت من
النساء إلا هذه الفتاة ..

قالت : يا كامل .

قلت : نعم يا سيدة كامل .

هل يمكن أن نعيش متشردين فى هذه البلدة

قلت : ألسنا متشردين الآن . قالت :

اترك الرباط اترك الأناقة دعك من كل شىء ثم أخذت الرباط والسترة
وتركتنى فى القميص والسراويل ووضعت الجميع فى حقيبة اليد والتصقت بى
وكانها تريد أن تدخل جميعها فى جسمى ، ثم مررنا على بائع (الهمبرجر)
قالت : اثنين .

وأخذت قرصا وأخذت الثانى .

جلست على الأرض وأخذت تحتسى الشاى ثم تمددت على الحشائش فى

الحديقة بجاني ورفعت رأسها ونظرت في وجهي بعد أن انبطحت على الأرض
نالت : هل أنت جائع ؟ قلت : قليلا .

قالت : حسنا يا شيخى وأميرى لا تتحرك سوف أغذيك حالا فذهبت إلى
بائع (الهوت دوج) وجاءتني بائنتين وجاءت بواحدة لها .

قلت : هل تكفيك واحدة .
ضحكت وقالت : ألم تقل للذكر مثل حظ الأنثيين .
قلت : نفعلك الدرس ونسيته .. ولكنه ليس دائما .

ثم جلسنا آخر المطاف تحت أقدام نصب كبير مطل على الراين لعله وضع
تذكارا للسلام ونهاية الحرب العظمى الثانية . وكان التعب قد أخذ منا كل
مذهب فأحسست وأنا مغمض العين بوخزة في جنبي قلت دعيني أسترح
يا نورية فأنا متعب .

ثم عاودنى الوخز ففتحت عيني فوجدت أمامي الزا وزوجها وهما
يضحكان .

وبلا شعور قلت بلهفة : هلو ..

ففتحت نورية عينها ولكنها تماكنت نفسها ووقفت لتصافح الزا وزوجها .
وسرنا على ضفاف الراين ثم جلسنا على مصطبة نسرح النظر في المياه
السوداء والسفن الجميلة التى تسحب وراءها قطارات من الحمولة المتنوعة
ولاحظت بيدرمان يحدق في نورية فقد لفت نظره جمالها وفتنتها .

قلت : يا بيدرمان سألتني عن محمد وأنه أباح الزواج بأربع .

قال : نعم نعم ولهذا أحب محمدا .
قلت : أولا إن محمدا لم يباح هو الزواج أو يحرمه .

قال : إذن من .

قلت : الشريعة الإسلامية . ثم إن هناك شروطا صعبة للزواج بأكثر من واحدة وقد حبذ الإسلام الواحدة هذا من خلال تعاليم الدين التي تكاد تمنع الزواج باثنتين .

ألا تعلم أن الزواج بأكثر من امرأة بعد الحروب خير من بقاء عدد كبير من النساء بلا رجال .

فانبرت الزا وقالت :

طبعا طبعا نصف رجل أو ربع رجل خير من لا رجل فقد كان الجنود الأمريكيان يصادقون كل يوم ألمانية ومع ذلك لم تحصل بعض الألمانية على الرجل لكثرتهم فالأحسن من الناحية الإنسانية الدين الإسلامي . ونحن نعرف رجالا عندهم أكثر من (دزينة) من النساء صديقات .

ضحك بيدرمان وقال : إذن خذا الزا معك فهي تحبك وقد أتعبتني بالحديث عنك فاضطرت أن أعود إليك .

وإذا أردت أن تستغني عن الدكتورة فاتركها لي .

قلت : أنا لا أترك نورية ولو تركت حياتي ولكن لا يهمني لو تركت لي الزا وأخذها معي .

قالت نورية :

ولكنى لا أوافق

فقلت الزا :

لماذا تكونين أنانية سنعيش معاً مادام بيدرمان لا يريدنى وأن هر كامل أوفى من زوجى .

ضحكنا وكانت جلسة لطيفة شعرت نورية بما فى نفسى لها والتصقت بى واحتضنتنى وقالت : الزا اذهبي إلى زوجك وأتركى لى حبيبي .

قلت : إنها تضحك وتسخر منك وما ترغب فى الشعر الذى بدأ الشيب يغزوه وانحسر سواده خائفاً فانكفأت على شعرى تقبله وتصيح بصوت عال .. وهى تردد :

ذئب أيها الذئب تريد أن تخدعنى أنا لا أعرف من أنت ؟ !

يا ذئبي الغالى

معك فى الصحراء

ومعك على الرمال

ومعك فى الخيمات

وعلا الضحك بين الجماعة وكنا نسير على نهر الراين مع جماعات كثيرة تفد إلى هذه البقعة الجميلة .

ثم قال بيدرمان : هيا نصعد إلى ذروة عالية فى الجبل فى المصعد لنتمتع بمناظر الطبيعة وجمال النهر والسهل والقلاع ومرور البواخر .

قلت جمعت الوصف فى سطرين هيا .

وهناك في مقهى جميل أخذنا مجلسا منفردا فقد أصبحت الألفة كبيرة بيننا الأربعة وكأننا أصدقاء من سنين طويلة وزالت الكلفة وأحبت نورية الزا وأحبت زوجها وكانت صداقة تنبع من صميم القلب .

قال : هر كامل

أتدري لماذا جئت بك إلى هنا ؟

قلت : ألم تقل للتمتع بمناظر الطبيعة

قال : هذا سبب إلى حديث طويل

قلت : أنا رهن إشارتك .

قال : أنا إنسان قرأت التاريخ المعاصر كما قلت لك وأنا أحب العرب وأحنو عليهم ولهذا أردت أن أفهم منك أمورا كثيرة وأريد أن تسمع مني ما أقول دون أن تغضب فإني أريد الخير لكم ولكنكم لا تريدون الخير لأنفسكم .

قلت : يا صديقي هل هناك من لا يريد الخير لنفسه .

قال : نعم .. وأنتم العرب أولا في اختلاف واضح . قلت :

نعم . فأردف :

في بون سفارات عربية كثيرة وسفارة يهودية واحدة فما مقدار أصدقاء العرب وما أثر هذه السفارات على الألمان .

أنا أقدر أن في كل سفارة ما لا يقل عن عشرة من الموظفين ومعنى هذا ما لا يقل عن مائة عربي في بون نفسها .

قلو تعرف كل موظف من هؤلاء على أسرة واحدة لكان لديكم الآن مائة أسرة أو أكثر . وفي خلال فترة قصيرة يزداد عدد الأصدقاء وبخاصة أن الألمان يحبون العرب ويكرهون اليهود تاريخيا .

لكنكم ترسلون إلى ألمانيا في السفارات من لا يجيد غير اللغة العربية . لأنكم لا تختارون للوظائف الأكفاء إنما تختارون الموظفين للأعمال فالموظف الناقص الثقافة واللغة يشعر بالخوف والرغبة ويبحث عن العرب ويتصل بهم ليتحدث معهم بلغته !

قلت : مشكلة مستعصية فكل حكومة تأتي بمن تثق فيهم وتعتمد عليهم دون أن تنظر لصالح الوطن ودون أن تنظر إلى الكفاءة والتقدير العلمي والفكرى قال : هذه واحدة .

الثانية انتم تفكرون تفكيرا عاطفيا ونحن نفكر تفكيرا عقليا وهنا تظهر الهوة بين العقل والعاطفة كل حديثكم حماسة وتريدون أن يؤمن الناس بكم دون أن تقنعوا عقولهم .

أنتم تهاجمون وتسبون وتسخطون وتكررون عبارات واحدة وألفاظا بعينها لكل الشعوب وبكل الظروف دون أن تفهموا أن للشعوب مثلهم وأخلاقهم واختلاف مشاربهم وبيئاتهم . ألا ترى أصحاب البيرة كيف يعلنون فالإعلان في (هامبورج) يختلف عن الإعلان في الجنوب . بل إن الإعلانات في برلين تختلف باختلاف المواسم فليكن الإعلان العربي والإعلام باختلاف الشعوب .

اليهود سماسرة وتجار ويعرفون ما يرضى رغبات البشر ويقدمون لهم كل

ما يريدون حتى يفوزوا بأموالهم والتاجر يكون جبانا خائفا على ماله ولكنه
يكون خبيثا وأنتم فرسان وأبطال ولكن البطولة وحدها لا تكفى لأن إسرائيل
سوق تجارى ليس لهم فيها شيء، كل شيء محبوب من العالم وأنتم فى أرضكم
وأموالكم ولكنكم تنقاتلون وهم يتحدون ضدكم .

هم اتحدوا باسم الدين اليهودى .
وأنتم تنقاتلون باسم المبادئ والمثل الغربية والشرقية والعدو على أبوابكم .
كان الرجل صادقا مخلصا وأردت أن أغير الحديث فقلت :
أنتم قتلتم اليهود وحرقتموهم ونحن نالنا الجزاء .

قال : هذه أسطورة روجها اليهود وإذا كان هناك من سجن وعذب فقد
تعذبت جميع الشعوب وقد كان اليهود أنفسهم يعذبون جماعتهم لكى يفروا
ولينشثوا الوطن القومى بعد أن وجدوا أن اليهود فى ألمانيا لا يريدون ترك ألمانيا
وقد كان فى الشرطة السرية من اليهود عدد كبير يثيرون الدولة على اليهود .
استفادوا فى الحالىن أخرجوا اليهود من ألمانيا بعد أن عذبوهم ثم أخذوا
يطالبون بالتعويضات . فهم هجروا اليهود وأخذوا التعويضات لبناء إسرائيل .

ثم قال بصوت هامس :

رحم الله هتلر لم يخلق الله غيره فلم يكن معتديا . فإذا كان اليهود نالوا من
أذاه فما سلم الألمان منه . نحن الآن مستعمرون من اليهود باسم أمريكا . .
وثق أن هتلر له أنصاره بعد أن شوه اليهود تاريخه وأرادوا إهانته . ألم
يهاجموا نابليون وما زالوا فى استمرار على الهجوم .

لم يعجبني الحديث وأنا أعرف أن هتلر قد ساق العالم إلى الدمار ومات في
الحروب الملايين ولكن استمعت إليه لأستفيد منه ولأعلم تيارات الفكر
المعاصرة في ألمانيا .

* * *

العودة إلى كولون

تشعب الحديث وطال . ووجدت الرجل الألماني ملما بأمر العرب وكانت الزا
أشد انتصارا لهم ولما أردت أن أسلم عليهما لأودعهما قلت :
أشكرك يا الزا على عواطفك الكريمة تجاه شعبي المظلوم الذى ظلمه الغرب
وأرجو أن نكون معا دائما .

فضحكت ثم نظرت إلى وجه نورية وقالت :
ما دمت قد تعرفت عليك فسيكون حبهام راسخا فى قلبى ووضعت يدها
على صدرى قرب القلب .

وقالت لها نورية : كل العرب ..
ونظرت إلى بيدرمان وقالت :
ولكن كامل - عفوا لكامل مكان خاص - هل تغارين عليه .
قالت نورية :

إنه حبي وقلبي وروحي ولا أريد أن تطلع روقي .
ضحكنا وجاءا معنا حتى محطة القطار يودعان .
وما أن خلت لنا المقصورة حتى قالت نورية :
ما كنت أدري بأنك متحمس لأمتك فأنت هادئ الطبع معى . قلت :

جمال الرياض وعطر الأزهار والأنسام العذبة تهدئ الأعصاب فكيف إذا
كانت نورية بجني؟

ضحكت ولم تتوقع هذا القول .
قالت : أعجبنى موقفك ونحن فى أسبانيا أشد كراهية لليهود منكم .
قلت : نحن ماكرهنا اليهود وقد كان منهم وزراء واعتمدنا عليهم ومنحناهم
الحرية الكاملة فى العبادة لأن الإسلام اعتبرهم أهل ذمة وعلينا حمايتهم
والعناية بهم وتسامحنا معهم خلاف الأمم الأخرى فقد اضطهدوا من الفرس
والرومان وسباهم أهل بابل .

قالت : أهل بابل أجدادك .
ضحكت وقلت : أحسنت أنت تعرفين التاريخ لكن نسيت تاريخ العرب فى
بلادك .

قالت : كيف ؟
قلت : أتعرفين أن عبد الرحمن عين صموئيل بن النفرانى (ابن نجريله) وكان
حاخاما يهوديا ورئيس وزراء فى قرطبة .
قالت : إنه لأمر غريب كيف حدث هذا ؟ قلت : والأكثر أنه سمح له أن
يناقش ابن حزم أحد علماء الأندلس عن صحة الإسلام .
قال : أمر أغرب .

إنه غريب جدا أن يعامل اليهود العرب بوحشية وبطش بينما العرب
عاملوهم بالتسامح .

فالرومان منعوهم من إقامة شعائرهم وكانوا يذبحون كل حاخام لليهود ولو اختاروه سرا . حتى حررهم العرب حين فتح العرب القدس أيام عمر بن الخطاب وطرّدوا الرومان منها ثم عين لليهود كبيرا لهم حاخاما حيث كانوا يتمتعون بحرية كبيرة . فلما أن بدأت في اضطهادهم في بلدكم فر موسى بن ميمون حيث عينه الملك العادل أيوب رئيسا للأطباء أى سلمه أرواح المسلمين وحياتهم .

لم ينع نورية هذا القول ونظرت إلى بعين الشك والريبة . وقالت :

أنا أحقر اليهود . إنهم شعب حقير وإنهم قتلة لأنهم قتلوا المسيح .

قلت : هذا هو الصواب

وسكت

وكان القطار يهدير في سيره . وسرعان ما وصلنا المحطة وأخذت نورية من يدها فضغطت على كفي وفجأة وقفت .

فوقفت وقلت : ماذا !!

قالت : إلى أين ؟

قلت : إلى الفندق

قالت : أنا جوعانة

قلت : وأنا كذلك

قالت : وأنا عطشانة .

قلت : وأنا أشد عطشا

قالت : هذا مكاننا المفضل دعنا نجلس

كنت أحس أن في نفسها شيئاً .

ولما جاء النذل

أسرعت وقالت :

هات اثنتين موسل

قلت : ما تأكلين ؟

قالت : أروى عطشى وأفكر بعمق حتى لا أضيع فكر وشريت كأس النبيذ
كرة واحدة وكان النذل واقفاً .

قلت له : زجاجة كاملة من فضلك .

ضحكت وقالت : سبقني إلى ما أريد هل تقرأ الأفكار !

ضحكت وقلت : أريد أن ترتوى من كل شيء .

قالت : لا أريد أن أرتوى إلا منك

قلت : لها جئت متأخرة

قالت : بالعكس جئت في الموعد المحدد

إنها قسمة ولن أفرط في لحظة واحدة معك .

وبعد أن شربنا وتعشنا .

قالت : أريد أن أمشي معك أريد أن أتيه معك أريد أن تأخذني حيثما

تريد . دعنا نمشي في الشوارع ونتيه في الأزقة والدروب . وسرنا وسرنا دون

أن نعرف أين تذهب خطانا حتى بعدنا عن زحام الناس . وجلسنا على

الأرض عند النهر الجميل . وجذبتني إليها وجلست معها وقالت :

حبيبي .. أريد أن أعاتبك

تعاتبيني هيا دون تردد

قالت : لماذا لا تتحدث معي عن العرب ؟

قلت : هل تريدن الحديث ...

تاريخ العرب في بلادك

قالت : أنسيت أنني عربية وأنتك أخبرتني ذلك .

هل أنا غريبة قل لي كل شيء عنهم حدثني يا كامل :

اعتذرت وقلت هذا شعور طافح أعتز به .

قالت : أنا أعتز به أتعرف أنني وجدت نفسي . وجدت إحساسى لأننى

أخذت أحس بأن لي أصلا وأن أصلى هو العرب بناء الحضارة والعلم والفن .

آه لو أن العرب أفهموا كل أسباني أصله لأصبح الأسبان كلهم معكم حيث لا تغنى آثارهم وحدها .

قلت : هم معنا دائما .

قالت : لا أعنى سياسيا إنما في قلوبهم وإحساسهم .

قالت : هذا واجبك منذ اليوم

قالت : وحدى سأعمل المعجزات

كان الدرب الذى مشيناه بعيدا عن الفندق ولم أكن قادرا على السير

قلت :

إلى تاكسى أيتها الظبية الفتية .

قالت : هذا أملى وخشيت منك أن تضحك على يا ذئبي الغالى.أما ترى

الشاة قد تعبت .

وفى التاكسى مددت رجلى فما وجدت غير رجلها تسبقان رجلى .
ونزلنا إلى الفندق وذهبت إلى غرفتى وخلعت ملابسى ولبست ملابس
النوم وإذا بالباب يفتح بهدوء وسكون وتدخل نورية وقد غيرت ملابسها
بملابس جديدة .

قلت : إلى أين ؟

قالت : أتنام !!

وكأن عطرها الفواح أيقظ الحجرة وأثاثها وسحبت الغطاء فلففت نفسى
بالبطانية وتذثرت بها ولكنها سحبت الفراش من تحتى وهى تصرخ قم .. العمر
قصير ومعك أقصر .

الحياة حلوة . دعنى أتمتع معك دعنى أرى حلاوة الحياة أريد أن نخرج
ثانية أريد أن تحدثنى أريد أن أسهر معك حتى الصباح أريد أن أرى الشمس
تطلع ونحن ساهران .

وأخذت تنزع ملابس النوم عنى وتلبسنى ملابسى وكأنى طفل صغير تُدَلِّله
وتناغيه فأحسست بأن قواى قد عادت ونسيت كل التعب الذى قاسيته طوال
النهار ودخلنا إلى مرقص ليلى جميل فى زقاق من أزقة كولون .

وأخذت ترقص وتشرب وتشرب حتى أغلق النادى أبوابه ولما دخلنا
الفندق كان الخدم يعدون الإفطار .

فأفطرنا ثم نمنا .

ولم أشعر إلا فى الساعة الثانية عشرة وبنسمة شديدة تداعب شعرى .

ففتحت عيني على نورية تحمل كوبا من الشاي وقالت : أتريد أن تتغدى أم تنام حتى العشاء .

وجدت نفسي قد أخذت قسطا من الراحة وذهبتنا إلى مقهى صغير في (الحلقة) وشرنا القهوة قالت وأنا أهم برفع فنجان القهوة : هل لى أن أتعلم من أستاذى شيئا من العلم ؟

قلت : تفضلى يا تلميذتى الغالية .

قالت :

عندما كنا فى كوبلنز وجدتك تهرب كلما وصلت إلى حرب يونيو ووجدتك لا تتحدث عنها فهل هو نتيجة الحرب . وخسارتكم فيها .

قلت : يا سيدتى نحن لم نخسر الحرب

ولكننا خسرنا معركة واحدة .. وفى تاريخ الأمم كثير من المعارك التى نخسرها وإنما الأعمال بالخواتيم ومازلنا فى أول الصراع .

قالت : إنك متفائل

هى الحقيقة يا نورية إذا لم تكن فى القريب فى التاريخ البعيد .

فالأسبان وقفوا لنا بالمرصاد ثمانية قرون ثم طردونا من دياركم مع أننا لم نحمل لهم إلا الخير وجعلناهم أخوة لنا وساويناهم بأنفسنا ولم نفرق بين عربى وأسبانى فكيف تريدون أن أتشاءم واليهود فى غير بلادهم وقد خلقت إسرائيل لأغراض سياسية بحجة ولائها أن تزول بزوالها .

ولماذا تذهبن بعيدا والحروب الصليبية حكمت المشرق وأنشأت فيه

حكومات تسعين سنة ثم أخرج الصليبيون . إن الجسم الغريب لا يقبله جسم الإنسان . ففي إسرائيل أمم مختلفة منها الأمريكي والروسي والألماني والشرق .
والوان متغايرة وشعوب شتى جمعها الدولار الأمريكي وما زال يسند لها مقاومة
الحركات الجديدة التي بدأت في الوطن العربي . فقد خشي الأمريكيان على
مصالحهم وخافوا على نظامهم .

ألا ترين أن هذا العمل بذاته خدم المصالح اليهودية في تكوين الدولة
الجديدة ؟

لا أشك في هذا ولكن أمريكا تهمها مصالحها بالدرجة الأولى وهي تحشى
من اتحاد العرب وتقدمهم وتعتبر المنطقة العربية قوة يحشى منها في المستقبل وقد
أيدتها أوروبا في هذا الرأي وهي تخاف من وحدة العرب وتقدمهم وتخاف من
عودة التاريخ العربي وهي تحاول جاهدة مع الاستعمار الغربي وقف عجلة
التطور ولكنها لم تقدر ونحن الغالبون .

ضحكت نورية وقالت : أصبحت متحمسا أكثر من اللازم وللأسف
الشديد أنكم شديدو الحماسة والإحساس وهذا هو الاختلاف بين الشرق والغرب
ثم استدركت :

وقد تركتم جزءا من حماسكم وعواطفكم الرقيقة في الأندلس .

لا شك يا نورية في هذا القول لاننا نحتاج إلى تطور حضارى ونحكم
العقول في كثير من القضايا فقد صدقنا إحساسنا المرهف وعواطفنا العميقة
عندما قيل لنا في منتصف الليل انتظروا ولا تكونوا البادئين في الحرب وكنت

أتمنى أن أكون البادئ: الظالم الذى يحاربه العالم على أن أكون المظلوم الذى يرحمه العالم .

فأنا أفضل القوة والاحترام على الخسران والرحمة لأن العالم لا يعرف غير القوة سلاحا .

قالت : أنا على عكس ما تقول

أدير خدى لمن يضرنى

قلت : هذا عهد مات وزمن فات .

وتقدمت إلى وأدارت خدها وقالت أضربنى على خدى حتى تهدأ ولعن الله الاستعمار واليهود والصهيونية .

وكانت الساعة تمضى سريعا فقالت فجأة :

الجوع كافر ..

إلى المطعم لنأكل .

جلست قبالتى ثم قالت :

متى تسافر إلى لندن ؟

قلت : تعالى معى اليوم !

قالت : إلى أين ؟

قلت : إلى الجراج !

ضحكت وقالت هل اشتريت السيارة .

قلت : أخيرا بعد صراع مع البائعين .

ولماذا الصراع .

قلت : لأننى لا أملك مبلغا لشراء سيارة جديدة .

فأربد وجهها وقالت :

لم لم تقل هذا ؟

قلت : العربى لا يأخذ من سيدة ولو كان دينا

قالت : هل نحن أقل منزلة فى وطنكم من الرجال .

قلت : لا ولكنكم فى مكان القداسة والإحترام .. !

قالت لا أفهم !!

قلت متى وصل المرء إلى مكان الرفعة فلا يقدر التابع أن يطلب شيئا .

قالت أنا أكره عبودية الإنسان

قلت ولكنى أحب عبودية الجمال وأهيم بها .

فخلصت من سؤالى أو تريد ألا تجيب لست غبية بدأت أفهمك لا جدال
فى أنك ذكى وإلا لما وصلت إلى مركز القيادة فى الهندسة ولكنى مثلك .

قلت : يسعدنى أن تكونى ربه إلهامى وأكون شاعرا .

إذن متى تسافر ؟

متى صدر الأمر من صاحبة الأمر ؟

قالت : غدا

قلت : سمعا وطاعة .

وعلى حين غرة أطرق كامل إلى الأرض وقال : هنا كانت بداية الشك وكانت
بداية العذاب الأول لى ونظر فى وجهى وقال :

لولا ذلك اليوم لكنت تزوجت نورية ولوجدتني معها عوضا عن أن تجدنى

أسير في أزقة (ايرل سكوت) في الطريق إلى نوتينج هل كيت Notting Hill Gate
ونظرت إلى وجه صاحبي فرأيت الدموع تسيل من عينيه بجمرة غريبة
وتركت صاحبي يبكي ويبكي حتى استراح وهدأت روحه واستقرت أحاسيسه
الثائرة .

وأخذ الكأس بيد وأخذ الأخرى بيد ثانية وأرن الكأسين وقال : تعيش
نورية

وما أسرع ما شرهما ونظر إلى وقال :
صب في كأسى وأنا سأملأ كأس نورية ثم ضحك واعتذر وقال :
ولابد من شكوى إلى ذى مروءة يسليك أو يشجيك أو يتوجع
قلت : الثلاثة في آن واحد وأرجو أن أكون من ذوى المروءة واندفع دون
أن يرد على .

يا ليتنى ما ذهبت معها . ويا ليتنى لم أعرف ما تصنع ولكن حبي أعماني
عن كل شيء فقد طلبت منى أن أصاحبها إلى مخزن كبير لشراء الهدايا
وبدأت تشتري الهدايا وترددت في الشراء وأنا معها وكأني حرمتها من الحرية
فتشاغلت عنها وقلت سوف نلتقي بعد ساعة عند هذا الباب وذهبت إلى جناح
الرجال لشراء بعض حاجتى من الملابس . وما أحتاج إليه من أربطة لآخذها
لأصحابي من لندن .

ولما ذهبت وجدتها قد سبقتني واشترت جملة هدايا لرجل !!

فجن جنوني وعلمت أن لها صديقا فأحجمت عن طلب الزواج إنها تريد
أن تختار أى الرجلين وكنت أظنها تريدنى وليتها اشترت ما تريد له من لندن .

قلت : وما كنت تصنع
كنت أنوى أن أتزوجها فى لندن فقد كتبت لحجز الشقة لأتزوج فيها .
قلت : ويحك .

شراء ملابس رجالية منعتك من زواجها .

قال : الهاتف الداخلى .

أنا رجل وأحس بالأنثى متى خدعت الرجل .
أترضى أن تبقى شقيا طول عمرك لسوء ظنك ؟

قال : الكرامة والاعتزاز بالنفس طبع شرق فلو تزوجتها لكانت حياتى كلها
شقاء ما دمت أعرف أن رجلا فى حياتها وكان حبي يمنعنى من طلاقها .

ويحك شاعر تحب أن تعيش فى الشقاء بل تستعذب الشقاء . لم لم تتزوجها
وتتمتع بها ثم تتركها بعد أن يتجلى الأمر لك .

كان ضميرى يعذبنى لأنى لا أريدها تتعذب .

إن كانت تحبك فقد تعذبت كثيرا .

لا أظن .. إنها تريد زوجا لا تريدنى كاملا .

هل أنت متأكد من قولك ؟

إحساسى كان صادقا وقد امتحنتها فما أفلحت فى الامتحان . والمستقبل
أثبت رأى فقد تزوجت بعد وصولها مدريد .

لم أدخل في نقاش مع صديقي فما زال يعيش في فكر شرق قديم ونسي حياته في أوروبا فالفتاة وجدته خيرا من صاحبها وفضلته عليه ولكن الغيرة القاتلة العمياء حرمته من فتاة جميلة مثقفة رائعة ولم أرد أن أنقد صاحبي فقد كنت في ضيافته وسكت حتى لا أجرح إحساسه وأشعره بالندم وبعد حديث طويل عنها ..

ألفت صاحبي يتنقل بسرعة إلى الحديث عن الطريق العام الداهب إلى ليج ليصل إلى القنال الإنكليزي فقال :

كانت السفرة ممتعة ونسيت كل هواجسي وطابت نفسي ونويت أن أفاتحها في الزواج في لندن وأن أعد لها المفاجأة الجميلة عندما تجد نفسها في الشقة الجميلة مع الأخوان والأحبة ونويت أن تكون زهرة المجتمع بأن أدعو جميع المصريين الموجودين في لندن وأساتذتي في الجامعة ومن يعمل في سفارتنا وكانوا أصدقائي وزملائي فقد ملأت السفرة قلبي ثانية بالرضا والسرور والسعادة وكأني نسيت ما رأيت .

وفي الطريق إلى ليج قابلنا طالبين وطلبا السفر معنا وهي عادة غريبة أن يسير الطلاب ومحبو السفر على الأقدام للمتعة والمغامرة ولتغيير حياتهم بعد أن يصيبهم الملل وكانا طالبين أمريكيين يدرسان في فرنسا وزارا أوروبا على هذه الطريقة . كانت فتاة حلوة وفقى بملابس الشباب المهيمة التي ألفناها وعلى ظهر كل منها حقيبة فيها ما يحتاج إليه المسافر وقد ينام الشاب منهم في ناد من نوادي الشباب المنتشرة في كل مكان بأسعار زهيدة أو في الشارع تحت شجرة أو في مخزن للتبن استمتعا بالتغيير وحبا للتنوع وزهدا في المدينة وترفها

والخضارة وتطورها واطمئناننا إلى الطبيعة في كل شيء وجهها لوجه مع السماء
وحيث الشجر والطير والأرض والحشائش والمرتفعات والوديان والمروج .
وقفنا وأخذناهما .

كان الشاب يدرس الآداب والفتاة مدرسة في مدرسة وسرعان ما جمعت
السيارة بيننا بالألفة والحديث وأخذنا نغنى وكأن العالم في واد ونحن في النشوة
والغبطة في واد .

لم يسألا عنا ومن نحن وإلى أين ولم نسأل من هما وإلى أين ولكننا فهمنا
كل شيء من المناقشة والحديث . ولكن الروح الشرقية دفعتني إلى السؤال وإذا
بلا وعي أتحدث في السياسة وبمشكلة العرب الحبرى : فلسطين .

قلت له : لماذا تناصرون اليهود .

فضحك وقال : لأنهم مواطنون أولا . ولأنهم مظلومون ثانيا . ولأنهم
أذكياء ثالثا . ورابعا وخامسا .

فقلت له : هل ترضى أن يأخذ الروس من بلدك كالفورنيا أو واشنطن ؟

فانتفض قائلا : كلا وألف كلا .

إذن كيف ترضى أن يأخذ اليهود أرضا عربية

قال : لأنهم كانوا فيها وهم أهل البلاد قبل العرب .

قلت : الآن الأسبقية والأفضلية للسكان الأول ؟

قال : بلا شك .

قلت : لماذا إذا تحاربون الهنود الحمر . أهل البلاد قبلكم بقرون وأنتم طارئون ؟

كنت أحس بالقلق في وجه نورية . ولما وصلنا إلى هنا إرتاحت وقالت : صحيح لماذا تحاربونهم .

ولما أحسست بأنه غلب على أمره رغم المسوخ الذي قدمه بأنهم حضروا بلاد أمريكا . أردت كسبه صديقا ولا أخسره مغلوبا . إذ ما فائدة أن أغلبه في المنطق وأجعله عدوا لأمتي . طويينا الحديث وأخذت أتودد إليه وأتحدث حديث الصديق وكانت نورية أكثر عطفًا عليه وحنوت على صديقه لأغير نورية وأضحك منها وتحول الحديث إلى الحب والصدقة وسرعان ما عاد لنا الصفاء نزلنا في أقرب مطعم ودعوناها معنا وأكلا معنا ما لذ وطاب وأشبعنا البطون لتستحي العيون .

أحسا بالود والصدقة وأحسا بأنى عربي وأخذت أتحدث إليهما بملء العقل لا العاطفة وكانت مناقشات هادئة بين الفريقين وكانت نورية تدلى بالحجج وتثير مشاعر الشابين وكنت أحدثهما عن الفظائع التي حدثت في دير ياسين وما اقترفه الصهاينة في فلسطين . كانا مثقفين ثقافة عميقة ولم يكن الإقناع سهلا وفي سفرة واحدة ولكن أعرف أن جميع دعايات الصهيونية قشرة فارغة . أخذت أبعداها بكل هدوء حتى ظهر الطبع الإنساني الصافي في نفسيهما . وبلا وعى وبلا شعور صاحبت الفتاة : أنت مقصر . ثم أردفت أقصد أن العرب هم المقصرون .. لماذا لا يحدثنا العرب عن قضاياهم ! وعدد العرب في أمريكا كثير ؟

قلت : لعلهم خافوا من جرائم اليهود .

العرب شجعان فهل يخافون الصهاينة ؟ ولماذا لا يضحى العرب ولا يستمرون في النضال ؟ فاذا قتل واحد وجب أن يحمل رسالته الآخر ، بدون التضحيات لن يكون للأمم كيان .

ولا تغضب إذا قلت لك أنتم كثيرو الكلام وقد أضعتم جهودكم فيه . وبعض الزعماء أدعياء وأثبتت الحوادث أنهم أول من يترك الميادين . لماذا لا تحولون الرأي العام في أمريكا ؟ لماذا تعادون الشعب الأمريكي دون مبرر وهو مستعد للمساعدة والمغامرة ؟

قلت : معاذ الله نحن لا نعادي الشعوب ولكن الحكومات الأمريكية كانت دائما مع الصهيونية .

قال : لأن لهم صوتا . ولأنهم في وسط أمريكا ومع الشعب الأمريكي فما صنع العرب المقيمون في أمريكا ؟ هل حاولت الحكومات والشعوب العربية الاتصال بالشعب الأمريكي وإفهامه الحقيقة ؟

أندري أنى كنت أخاف من كل عربي ؟ ! فقد صور العربي لنا بأنه يأكل الناس وأنه قاس وأنه غير متمدن وأنه مازال يغزو ويفترس وأنه لا يقرأ ولا يكتب ولا يركب غير الجمال ولا يحب غيرها .

انشروا بيننا الكتب وانشروا الصحافة فأموالكم كثيرة . دعونا نفهم العرب . خذوا منا من يسافرون إلى بلادكم وسوف تجدون الشعب الأمريكي بعد ذلك معكم ولن يدفع بعد ذلك الأموال إلى إسرائيل .

قلت : يا ليت قومي يعلمون ويعملون !!

كانت السفرة رابحة ، فقد أعطاني الرجل المفتاح وفتح الأبواب البعيدة !
ولكن هل أقدر على العمل ؟ !

ولما وصلنا أول ليج أستاذن هو وصديقه في النزول وأعطاني عنوانه
لأرسله مع صديقه ولكني لم أقدر على هذا فقد خفت أن أكتب إليه من
رقابة البريد وبخاصة أنهما من بلاد الاستعمار وكنت أكتفي بإرسال بطاقات عيد
الميلاد إليه دون عنواني .

وسرت وأحسست بالألم واستغرقت في تفكير عميق لا أعرف ما أفعل .
أين أنت ؟

وكأني أستيقظت من نومي على صوتها .

نحن هنا .

هذه ليج قد تركناها . ألا تحب هذا الفندق المنزل ؟
قلت : نعم خير منزل ليلة واحدة .

هل أخبرها بأني أخاف في وطني من الرقابة أخاف من الأمن وأخاف من
الشرطة وأخاف من الجواسيس ، وأخاف حتى من زملائي الانتهازيين ..
سكت وتصنعت الابتسام وبعدها ابتسمت ثم أوقفت السيارة بجوار الفندق
فجاءني شخص عندما شاهدني أنزل جميع حقائبي وأفرغ السيارة وقال خذ
ما تحتاج هذه الليلة واركب بقية الحوائج والحقائب في مكانها .

نظرت إليه بارتياح أترك كل شيء على الأرض أنه من المستحيل علي أن
أطمئن ونظرت إليه صاحبتى وقالت : لا تقلق من الفوضى فسوف أرتب كل
شيء في الصباح وما درت أني قلق خوف السرقة .

كان الترحيب حارا بنا فقد كنا الشخصين الوحيدين الغريبين ولم تكن الساعة قد دنت بعد من العاشرة عندما طرقت الباب . وقد كنت ارتيمت بملابسى على الفراش واستغرقت فى نوم عميق فقممت معتقداً بأن الصباح قد أشرق وقبل أن أقول أدخل أو الفظ كلمة واحدة فتحت الباب وعجبت لهذا المتطفل المستعجل الذى لم ينتظر حتى أقول له تفضل .

ولما أغلقت الباب وجدت فتاة فى ملابس السهرة وقد ارتدت الملابس العربية القديمة وتنقبت بخمار أسود ووقفت فى وسط الغرفة دون كلام وبدأت ترفع الخمار الجميل فإذا نورية تضحك وتقول بسخرية وغيرة عجيبة . أنا أحلى أم بنات الإنكليز ؟ !

قلت : أنت أجمل فتيات الدنيا .

لماذا تذهب إلى لندن مادمت تجدى أجمل الفتيات فى الدنيا فالدنيا إذن معك والجمال معك .

ضحكت وقد غلبنى المنطق قلت :

أريد الآخرة والقبح .

لماذا تستعجل الآخرة ولست شاذاً مادام فى هذه الدنيا من يريدك أن تكون معه ؟ وهل تظن الآخرة خيراً من الدنيا وأنا فيها . إن الدنيا جميلة بى والآخرة حلوة اذا انتقلت إليها إنه غرور إنه كبرياء ألا تريد أن تقول ذلك ؟ .

وارتمت مثل الطفل بين أحضانى تبكى وتجهش بالبكاء . وسرعان ما جففت دموعها وأخذت أداعبها فاستردت حالتها الأولى وقالت ما أحلى

نسيان الدنيا معك وما أجمل أن أنسى الآخرة بوجودك لماذا لا تأخذني إلى الصحارى المشرقة . إلى الجبال إلى الخيام إلى الرمال سأكون جارية مغلصة وسأكون سعيدة أمينة وسأكون خادمة مطيعة - ثم سكنت وأطرت إلى الأرض وقالت .. لا يهمنى عدد زوجاتك دعنى أكون إحداهن . العاشرة . الحادية والعشرين لا يهم لأكن معك وأخدمك .

وإن كن مائة فهل يمكن أن تعيشي معهن ؟

ولو كن ألفا من بنات الشرق والغرب يكفي أن أراك في الصباح والمساء .
يكفى أن أعرف أنك قريب منى .

يا الله من حب المرأة وعمق مشاعرها وصدق إحساسها لسمعى يا نوريه .
إنك أخطأت فلسنا نعيش في القرون الوسطى نحن شعب ثقافة وحضارة وزاد الإسلام في تعميق القيم الروحية والإنسانية والفضائل في نفوسنا .

هذا ما أحبته فيك هل تريد أن أكون مسلمة لتؤمن بصدق شعورى وعمق إحساسى .

قل سأكون. طوع أمرك يا حبيبى. ثم أخذتنى بين يديها في قبلات محمومة وبدموع حارة وكلمات ضاعت بين همسات القبل وأشواق القلوب .

وحانت منى التفاتة إلى المرأة فوجدت نفسى بملابس النوم وقلت انظرى من هذا ؟ .

قالت : هل أنظر إلى الملابس أنا أحب ما تحوى الملابس .

ذهبت نورية إلى الحمام وفتحت الحنفية وصبت فيه الصابون وسمعتها في الداخل تقول :

جاريتك الواحدة والعشرون تسأل !

ضحكت وقلت : ما تريد سيدة الجوارى ؟

قالت : هل تريد الماء ساخناً أم دافئاً ؟

وكنت ارتديت الروب وهممت بالدخول إلى الحمام .

توقفت في الطريق . ثم انحنيت بكل احترام وأدب وعلى محياها السخرية والدعابة وقالت :

ليفضل مولاي شيخ العرب . عفواً شيخى وسيدى إلى الحمام وهل يأمر جاريته أن تغسل رجله .

قلت : سيأمر سيدك بمساعدته في تدليك ظهره . قالت : هل يريد الجارية عارية أم نصف عارية ؟

قلت : لا هذا ولا ذاك أريدها في ملابسها .

قالت : سيدى محافظ . هلى هو شيخ مسجد . أو راهب فى كنيسة ؟

لا ولكنه يريد أن يستحم فقط .

وهل هناك داخل الحمام غير الاستحمام يا سيدى الشيخ وأغلقت الباب بعنف وألم وسرعان ما فتحت الباب وقالت متى يأمر سيدى فسوف ألبى النداء .

ثم خرجنا إلى ليح الجميلة الساحرة .

وظفنا بها ولم أكن أرى غير نورية في ضحكات ليح وجهها وحسن تنسيقها .
إنها جميلة . إنها جميلة . إنها مدينة حلوة خفيفة الظل ساحرة المناظر وما رأيت
السحر والجمال إلا لأن نورية كانت تساقيني هذا الجمال . لأنى وجدت الحسن في
عينها وألفيته في حديثها وشربت الهدوء في حنانها وعذب حديثها .

نحو القنال

ودنت ساعة السفر نحو القنال الإنكليزي للعبور إلى القارة كما يسميها الإنكليز
فهم يرون أنفسهم قارة غير القارة الأوربية ويرون أنهم هم الشعب الأصيل
وغيرهم دخلاء وغرباء فعجبت نورية من هذا وتساءلت كيف ؟
تصورى أن سيدة إنكليزية عجوزا ذهبت إلى إيطاليا ولما دخلت الفندق سألتها
صاحب الفندق :

هل أنت أجنبية ؟

أجابته بغضب : أنت أجنبي

كانت السيارة تطوى المسافات في نشوة عجيبة وكأنها جبال أجدادنا عندما
سالت الصحراء بها فقد سالت الطرقات بالسيارات في مختلف أنواعها وحجومها
تتسابق على هذا الطريق الممهّد المرصوف الجميل الذي قل أن تجد فيه ما يعكّر
صفو المسيرة المستمرة .

وبلا وعى أو شعور اندفعت نورية في غناء عذب شجى لم أفهم من معانيه
شيئا ولكن العواطف المتدفقة كانت ترسم في كل كلمة تقولها وفي كل نغمة
تنشدها كانت تغنى لى وكان الحب تمثالا ، أراه في كلماتها في أجمل صور النحت
والرقة تبدو في أزهى ثيابها وأحلى أريجها وشذاها . لم تكن تغنى كان اللحن نفسه
يطرب عندما يخرج من شفتيها .

وبلا وعى أخذت أغنى أغنية عربية لو سمعها أخواننا الملحنون والمغنون هربوا
فرقا وخوفا من صوتي ولكنها كانت تفهم أن القلب هو الذى خرج على الشفتين
يغنى ألحانه ، والعواطف اشربت ترسم لها الخلجات والأحاسيس واللحن نفسه
غدا يتلوى من شدة الوجد .

أزحت كل هموم الدنيا ونفضت عن قلبي كل أوجاع الحياة فقد أحبت الألم
وصادقتنى الأحزان ولما برمت بهذه الصداقة وجحدت ذلك الحب ، عذبتنى
نفسى وأرادت أن أستمر فى العذاب فقد ألفتة وأصبح جزءا من كيانى .

ولم أكن أدري بأنى استغرقت فى شرود وحيرة وأنى نسيت أننى أسوق فى
شارع عام فقد سرحت فى خيال الشقاء والهم وأنا بين أحضان السعادة والهناء
وبلا شعور قلت :

أحمد الله .. وتمت يارب أغنية خير ولا تزد فى همومى . وكأنى استكثرت على
نفسى ساعات سعادة اختلستها هذه السفرة من أنياب الدهر .

وبلا شعور صرخت آه .. فقد لكزتنى نورية وقالت :

أين سرحت ؟

أين ذهبت ؟

عد أيها السائق إلى وعيك ولا تنتحر مادمت معك .

وضحكت على نفسى فأنا فى السعادة وأريد الشقاء .

قلت لها :

لن أنتحر لسبب واحد .

قلت : ما هو السبب ؟

قلت : حتى لا أزعجك فى موتى .

وبلا شعور صاحت :

كفى يا كامل بالله كفى لا أحب الموت ولا ذكر الموت نحن فى أتم الرضا
والحبور فلماذا تفسد علينا هذا الجو وهل هذا التفانى فى إرضائى يسعدنى .

لماذا تخافين الموت !

أجابت وكأنها تتحدث بحكمة الفيلسوف :

الموت هو الظاهرة التى أرهبت البشر وأفزعته وأقضت مضجعه لأنه لم يقدر
على الإفلات منها .

قلت : ولولا الموت لما كبح جماح البشر ولما قامت الأديان لأن الإنسان لم
يقدر على حل كنهه ولما يئس فى مقاومة الفناء حاول بكل طاقاته أن يخلد جسمه
بالتحنيط أو هرم أو بناء- سامق .

هناك ضحكت نورية وقالت :

وهكذا عمل أجدادك الفراعنة الأهرام وحنطوا جثث الملوك والزعماء .

قلت : وللآلهة من الحيوانات التى عبدها المصريون القدماء . فأردفت :

يا ليتنى أزور مصر وأرى الأهرام .

الأمر سهل فأنت مدعوة فى الشتاء عندى .

الدعوة مقبولة إذا أتيت لى الفرصة عسى أن أعرف الموت والخلود إذا
ما رأيت المتحف المصرى وحضارة الفراعنة .

وسرحت هي في خيالها وتركها تتمتع في الخيال الممنهج ثم قالت ما أجمل
الإيمان بالآخرة وبالبعث فإن المرء ينال مرتاح النفس ، والإيمان وحده راحة
القلب ويا ليتني ما تعلمت وأخذت أفكر فإن الفكر هو العذاب والفلسفة هي
الجحيم . ونظرت إلى وقالت : ألا أسمعك خيرا من هذا العذاب وذلك الجحيم
وانطلقت بأغنية عربية :

يا رب تم الهنا واتلم شملى عليه
بلغت روحى المنى والقلب سلم عليه
لكن ياربى الفرح زاد بي
والفرح لو زاد عن حده تكثر عليه الأوهام
وليه يا قلبي الفكر ده ليه والدنيا حلوه فى عينه
يا هل ترى خائف من إيه خائف الزمان يغدر بي

كانت مفاجأة غريبة أدهشتني أن تغني هذه الأغنية وباللغة العربية ولولا
ما اعتور الأغنية من لكنه أجنبية لحسبت المغنية عربية . كان صوتها يعذب ويرق
ولحنها يسحر ويأخذ بالقلب واللب ولا أدري هل لأنها غنت بالعربية أم لأن
الحياة كانت معها حلوة فإن الإنسان قد يسمع أغنية في وقت من الأوقات فلا
يحس بحلاوتها في وقت آخر وقد يطرب لنغم حبيب لا يؤثر فيه في زمان آخر .

أين تعلمت هذه الأغنية يا نورية ؟

من أمريكا فقد كنت أدرس فيها وكانت لنا جارة تغنيها دائما وشرحت لي
بعض معانيها .

هل تعرفين معاني الكلمات ؟

أفهم بعضها والآخر أعرفه بالقرينة .

ورغم النشوة والطرب الذى جعلنى أسابق الريح فى السيارة فقد بدأت أشك بأن الجارة رجل لأن فتاة أجنبية لا تحفظ شعرا بلغة أخرى إلا إذا كان هناك رجل وتلك سنة ألفتها وعلمتها فمن هو هذا الرجل ؟ .

ماكنت أريد أن أضيع السفرة بالسؤال ولكن الشك تسرب إلى روحى ورجوت نورية أن تكتب لى القصيدة التى غنتها لأحتفظ بها بخطها .

ومد صاحبي يده إلى جيبه فأخرج ورقة فيها الأغنية وأخذ يقبلها ويبكى .
قلت له : أنت تغرس الشك فى نفسك وترعه فى روحك ولا بد أن يؤذيك الشك كالشوك .

برمت بهذا الإنسان المتناقض وأردت أن أغير مجرى الحديث ! ولكن وجدت فى الحديث راحة نفسية له وكأنه أراد الاعتراف والندم ليكفر عن ذنب عميق الجذور وقديما قال الشاعر :

لعل انحدار الدمع يعقب راحة
من الوجد أو يطفى شجى البلب

وأحس صاحبي بأنى برمت به وأن حياته أصبحت تتناقض مع الواقع أو أنه يناقض الواقع ولا يفهم حياة الغرب وما فيها فنظر إلى نظرة كلها عتاب وقال :

دوائى ودائى عند من لو رأيت
يقلب عينيه لأقصررت عن زجرى

فأقسم لو أصبحت فى لوعة الهوى
لأقصر عن لومى وأطنبت فى عذرى
ولكن بلالى منك أنك . ناصح
وأنت لا تدرى بأنك لا تدرى

عجبت لمهندس يحفظ شعرا غباشيا وتسعفه الذاكرة بأن يستشهد وقت
الاستشهاد .

وأردت أن أسعده بالحديث عن نورية قلت وماذا بعد ليج ؟
وارتشف من كأسه وأخذ رشفة مثلها من كأس نورية وقال :

سارت بنا السيارة أو سرت أنا بالسيارة نحو بروكسل متعة لى أخرى أن تكون
نورية محدثى طوال الطريق وكانت قد اشترت من الطعام والشراب كثيرا وفى كل
مرة تلقمنى كالطفل أو تسقىنى حتى أرتوى .

وكان الليل قد أرخى سدوله عندما وصلنا بروكسل وقد وجدتها غير بروكسل
فقد صنعوا فيها نفقا وتغيرت خارطة المدينة . نة .

تغيرت المدينة كثيرا بالطريق الجديد الذى أعد للمعرض الذى أقيم فى
بروكسل ولكنه سهل الكثير فى المرور وأضاع على سبيلى وصعب على أن أجد
مكاني فقد وضع نظام للمرور جديد كان سببا فى جولة طويلة حتى وجدنا أنفسنا
بعد العناء والمشقة والتعب أمام فندق فيكتوريا وسرعان ما أوقفت السيارة
ووجدنا مكانا لطيفا . كانت الحياة جميلة بل أنها غدت جميلة والجائع يأكل
ولا يحس بالشبع والظمان لا يحس بالرى إلا وقد امتلأ وفاض ولكن جمال الحياة

ولقاء المحب ، لا يحس الإنسان أنه شبع منه وارتوى ولولا الهواجس العميقة
لكانت سعادتي لا تعدلها سعادة .

في صباح حلو مشرق وجوقلما تجده في أوربا غادرنا بروكسل إلى الشاطئ نحو
القنال الإنكليزي . وكان البحر هادئا صاحك السماء بسام الحيا وصعد الركاب
على العابرة يتمتعون بالشمس ، وتمنهم من لبس ملابس السباحة واستلقى لتصل
أشعة الشمس إلى كل ذرة من جسمه ، ولا تختلف المرأة عن الرجل والطفل
والعجوز الكهل كلهم يعبدون أشعة الشمس ويستمتعون بها وكأنهم نشاوى بها
لذة ورضا .

وصلنا الشاطئ الحلو وأردنا أن نقضى الليل في فوكستون ولكن الأمطار
بدأت تهطل وتغير الجو في الساحل الإنكليزي وبردت الدنيا واستأنف أصحاب
السيارات السير نحو العاصمة الكبيرة وأدركنا الليل وأدركني التعب وسكنت
نورية صامئة شاخصة ببصرها نحو الظلام وكأنها تريد أن تحترق هذه الغمة
القاسية وكانت قطرات الماء تتحارب بعنف وقوة مع الماسحة التي أخذت تبذل
جهدا كبيرا لتصفي الزجاج وانتصرت على المطر وطالت المسافة وبدأ الجوع يدق
بعنف والبرد يزيد ونحن نبحث عن مكان نقضى فيه الليل .

ما أقسى البرد والجوع والتعب والظلام على الغريب الذي لم يعتد السياقة في
الطرق الضيقة بين فوكستون ولندن فقد كنت أسوق السيارة وأمامي خط
طويل وورائي خط أطول وكلهم قد ضبط أعصابه وسار بهدوء فقد خفف
الجمع السير حتى قيض الله مخرجاً فأخذت السيارة تسرع في الحركة وتجد وانتابني
شعور لذيذ عندما صعد المؤشر إلى الثمانين لأن الطريق تشعب وبدأت السرعة

ترداد ولكن الجهد والاصطبار والجوع والبرد والظلام هدت الأعصاب فقد نامت القرى التى كنا نمر بها ونام أصحاب الفنادق الصغيرة ولم أعد أرى جملة :

(فراش وفطور) أو (يوجد مكان) .

وزاد فى الملل أن نورية جلست إلى جانبي ترقب الطريق وأصبحت هى الهادية لأن السياقة تحولت من اليمين إلى اليسار ولم أعد أرى من بعيد الجهة المعاكسة والسيارة المقبلة من المنعطف ولما اجتازت السيارة إحدى القرى شعت الأنوار على جملة (فراش وفطور) .

وبلا شعور وقفت أمام الكلمة أتفحصها غير مصدق وقلت للرجل الواقف بالباب .

هل يوجد لديك مكان لنا ؟

وكأنى غير مصدق للجملة المعلنة بالضوء الساطع فأجاب : نعم وهو دافئ جميل يصلح لكما .

وكأنه أحس بالبرد الذى أخذ منا مأخذه وقدم الرجل لى ورقة أكتب فيها اسمى وعنوانى ثم قادنى إلى غرفة جميلة ونظيفة فيها سرير واحد لشخصين .

ألا توجد غرفتان ؟

أو سريران منفصلان ؟

قالت زوجته التى نظرت إلينا باستغراب :

هل تخاصمتما فى الطريق ؟

أليست أرخص لكما وتناسبكما ؟ ! وإذا نمتما في فراش واحد فسوف
تصطلحان في الليل ! .

أليس كذلك يا جو ؟ .
ولكزها جو وظهر عليه الخجل . ولكن النكتة أعجبته ..
وأقفلت الباب وهي تقول :
تصبحان على خير وصلاح .
وكانت النغمة لطيفة فيها أكثر من إشارة .

ولما خلونا في الحجرة .. نظرت إلى وجه نورية وقد ارتسمت على وجهها
علامة من الرضا والهدوء ولم أشعر باحتجاج أو برفض ثم أردفت :

ليس هنا اختيار !
ورضينا بالقدر .
وأنزلنا الحقائق .

وشعرنا بالجوع ومددت رأسي من خارج الشباك الذي كان يفصل بيننا وبين
ربة الدار ثم أشرت لها على بطني فقالت :

الطعام قليل ولا يكفي ولكن هناك بقايا في القدور قلت لها اجمعها فنحن
نحب (التورلى) .

قالت : هل تشربان ؟
قالت نورية :
ماذا عندك من مشروب ؟

كل ما تريدان
قليلا من البراندى
وأنت ؟
قلت : بيرة مع البراندى
وبينما كان زوجها يجلب الطعام والشراب .. قالت :
إنكما سعيدان لأنكما وجدتما هذه الغرفة بعد منتصف الليل .
قلت لها :
إنك المحظوظة لأنك وجدت من يستأجر الغرفة بعد منتصف الليل .
بهتت للجواب وضحكت وقالت : صحيح كم مرة تبقى عندى محلات
فارغة .

وأحضرت المائدة .
وأخذت أخلط البيرة بالبراندى .
قالت ربة البيت :
ما هذا المشروب ؟
إنه شراب خاص بى ، إنه كوكتيل «كامل» .
عادت ربة المنزل ومعها كأسان وجلست معنا على المنضدة وقالت :
معذرة ...

أريد أن أجرب كوكتيل كامل .
وأخذت تشرب بشهية عجيبة وتريد فى الشراب وأخذت تقدم الشراب
بسخاء ونظرت إلينا وقد دارت الخمرة برأسها :

كم يوما ستمكثان عندنا ؟

هذه الليلة فقط .

الليلة فقط ! ؟ !

للأسف الشديد إذن زدنى يا كامل واسقنى حتى الصباح .

لماذا الأسف والتزل حافل بكل حجارته وغرفاته ؟ ولم تشربين حتى
الصباح .. ؟

أريد أن أعب من كوكتيل كامل كل يوم ..

وسكتت برهة وقالت بمראה :

لكى أنسى غربة الروح في ظلال الشرق وروحانيته وأرجو أن نراكما فسوف
أشرب من هذا الخليط الجميل دائما .

ثم نظرت إلى بابتسامة سكرى وقالت :

مستر كامل

نعم يا سيادى

إنها سعيدة ويا ليتنى مثلها !!

أنا السعيد لأنها أملى الحلو وحياتى المشرقة وروحي النضيرة .

مستر كامل . قالتها وتلعثمت .

نعم . وران صمت ثم أخذت الكلمات تخرج بهدوء إنها سعيدة .. المرأة
حسود .. أنا أحسدها .

قلت باللغة العربية :

عين الحسود فيها عود .

نظرت إلى ونظرت نورية إلى لأنهما لم تفهما ..
ولأول مرة جمعني ونورية سرير واحد .
وفي الصباح المبكر سمعت طرقات على الباب ودخلت ربة المنزل تحمل
الفتور .. وجلست غير بعيد .. وقالت :
هل ستعودان ثانية .. قلت : الله أعلم .. هل يمكن إعداد قائمة الحساب .
فوجدتها قد كتبت فيها مستر كامل والدكتورة نورية ووضعت الوصل في
جيبى .

وقلت لنورية :
هذه شهادة زواج في العرف الإنكليزي يمكن أن تقيمي على الدعوى
وتستشهدى بهذا الوصل وربة الفندق شاهدة على أنني قضيت الليل معك في
غرفة واحدة .

لا أريد الزواج بالإكراه .. وسكتت ثم أردفت :
إلا إذا جاءني طفل من إنسان أحبه وأنت لا تريد .
قلت يا نورية : نحن لا نقرب غير ما أحل لنا ولو قتلنا العشق هذه شرعة
العرب الأوائل !

وإذا قتل هذا العشق الفتاة التي تعشق العربي ؟ !
إنه نادر الحدوث .. فالرجل هو الذى يموت عشقا ، وتاريخ المحبين شاهد
عدل وفي التاريخ شواهد مثل روميو وجوليت الخيالية ففي تاريخنا مجنون ليلى
وعبد الله بن العجلان النهدي وجميل بثينة !

هل مات كثيرون من العرب عشقا ؟
تاريخ العشق شاهد بل إن هناك قبيلة اشتهرت بموت العاشقين .
هل أنت منهم ؟
أنا لا أريد أن تموت في سبيل يكفى أن تذكرنى في وطنك وتسمى عمارة من
عماراتك باسمى .

ورفع كامل كأسه ونظر فيه ثم سكت سكوتا طويلا خيم على جميع
حجراته .. وتهد وقال :

ليت شعرى هل تذكر نورية هذا الليلة أم أنها سوف تنسأى وتنساها ؟ .
وأخرج الوصل من جيبه وأخذ يقبل اسمها ومن ثم طواه بعناية ورقق وحنان
ومسح وجهه به وأعادته إلى محفظته ونظر إلى وقال :

ليس في الدنيا باق سوى الحب ولن يعيش مجتمع بسعادة بغيره ولا تدوم
حياة رافهة بسواه .. إنه يزيل العقبات ويسهل المشكلات ويهذب الشعوب
ويحضّر المتوحش ويصقل حواشيه ..

هل رأيت عالما بغير الحب .
قلت : الواجب فوق الحب ..
قال باستغراب :

الواجب ؟ ! أى واجب ؟ !
قلت الواجب الوطنى أو القومى أو الإنسانى .. أو الشعبى أنا أفهم الواجب

الإنسانى والوطنى بسهولة وأدركه دون عناء.. لكن ماذا تريد بالشعبى والقومى ؟ !

وجدت صاحبى وقد تأثر بالفكر الغربى وأصبح جزءا منه وساعدته قاعدته الفكرية القديمة على هذا فأخذ ينسى قومه وشعبه ولا يدرك معنى الإخلاص القومى والشعور الشعبى بعد أن تخطت أوربا هذين المعنيين فى وطننا وشرقنا العربى وأخذت أوربا تحس بالدولة بعد أن أدى الشعور القومى واجبه فى الاتحاد الألمانى والوحدة الإيطالية وأكد معنى الدولة بروز أمريكا بقوتها ووجود سويسرا بثلاث قوميات فهم سويسريون رغم أن أصولهم فرنسية وألمانية وإيطالية وكذلك فى بلجيا وغيرها من دول العالم المتحضر فاعادت الأقوام والديانات والشعوب لها أثر فى تكون الدول فالضرورة قضت على أمريكا ذات الشعوب المتعددة وعلى سويسرا ذات الأقوام الثلاثة أن تنسى القوميات وتقوم على الدولة والنمسا الألمانية الأصل تنصلت عن شعبها إلى جنسية الدولة .

وأردف بعد تفكير عميق قائلا :

هل تؤمن بضرورة القومية لقيام دولة من الدول ؟

قلت : لا بد للدول من قاعدة تقوم عليها ومادامت القومية موجودة فلماذا لا تكون القاعدة وهى خير من دولة بلا قاعدة لأن الدولة تدافع عن مصالح جماعة من البشر وتعتر باسمها وتذود عن كيانها ومادامت قومية أمة موجودة فإن إحساسها بها يدفعها للذود عن مصالحها فوجودها خير من خلق رابطة جديدة هى رابطة الدولة التى اضطر إليها أبناء سويسرا والنمسا وأمريكا اضطرارا . فالعرب قوم واحد ولغة واحدة ولفكرهم منبع واحد وفى تاريخ العرب أمثلة

على اندماج شعوب كثيرة في دولتهم .. وفي قوميتهم . قال لي كامل :
أين عرب أسبانيا ؟ .

قلت : عرب أسبانيا تركوها لأن محاكم التفتيش أبعدهم عنها ولكنها لم
تقدر على محو آثارهم في اللغة والموسيقى والملابس والتقاليد وطرز البناء . ولكن
الإسلام خرج بدون رجعة : فهل يفقه العرب اليوم مأساة الأندلس وينظرون
إلى الأندلس الجديدة . .
الأندلس الجديدة !!

هي فلسطين ضاعت كما ضاعت الأندلس . لأن العرب تفرقوا واهتموا
بمصالحهم وأخشى أن يضيع العرب كلهم أمام ضربات العدو فالتاريخ يعيد
نفسه !

الآن عرفت لماذا تريد أن تقوم الدولة العربية على أساس قومي لأن
(فلسطين) عربية ..

كلا وألف كلا إن فلسطين حق العرب . إنها كالعضو الغالي فهل إذا قطعت
جزءا من جسمك نمت هادئ الليل مغمض العين ..

لماذا لا تتوحد كلمة العرب وهم ملايين واليهود عددهم ضئيل .
هل تعتقد أن اليهود يحكمون فلسطين وأنهم قادرون على البقاء لولا أمريكا
والاستعمار الغربي .

لا أعتقد ولكن تفرق كلمة زعماء العرب وقادتهم وخوف الغرب من العرب

ومن نهضتهم المحققة دعاهم إلى خلق هذا الجسم الغريب ليكون رأس رمح لهم وموطئ قدم لقواتهم .

ولكن العرب متباغضون يخارب بعضهم بعضا ويقاتلون إخوانهم ويسفكون دماءهم ..

ثم ضحك وسكت وأخذ كأس نورية وشربها وقال أنا أبعد نظرا منك فالحب هو انذى يصلح العرب والحب يوحد قلوبهم والحب يلم شملهم ولن يصلح شمل العرب بغير الحب يحيا الحب .

وشملت صاحبي ساعة حلوة تبسم لها واعتدل في جلسته وأردف : إلى أين وصلنا في حديثنا مع نورية ألم نأت هنا لنسمع حديثها الحلو الشهى .

قلت له كنت تفقد سيارتك وهى بجانبك وأردفت بعتاب ورقة :

وهل ينسى الحب حديث الأعبة ؟

قال أردت أن أتأكد من أنك تتابع الحديث وأنت لست مجاملى فى هذه الجلسة أو أنت تثرى لى الحالى .

قلت هات ولا تطل . واستأنف قوله :

نحن أوشكنا على النهاية . فقد كنت سعيدا ومجبا صادقا ولم تكن الحياة تسع هذا الحب العظيم وبينما أنا أسوق السيارة حدثت فى وجهى نورية وكأنها ترسم صورة وجهى فى ذاكرتها . كنت أنظر فى المرأة والسيارة تنهب الأرض فى الطريق إلى لندن وخشيت أن تنسى قدوم السيارات فى الطريق الضيق ونكون ضحية سهلة

ونصطدم بسيارة مقبلة من لندن إلى بحر المانش وبخاصة أنها هي التي ترقب الطريق
الذى تغير من اليمين إلى اليسار .

كانت نورية تتألق فتنة وتموج جمالا وليس من حديث لنا سوى مناجاة
العواطف الصامتة وهمسات الأحاسيس الخرس وكان شعرها الكستنائى النافر
يداعب الهواء فيضحك من نشوة المداعبة ويتطاير في بهاء العبث كأنه أغنية
حلوة تهمس في أذن الزمن تسعده بالفتنة الساحرة والنشوة العذبة والجمال الفرد ..
إنه الحب هو الذى خلق كل شىء واسمع يا صاحبي .. ونظر وكأن يريد التأكد من
متابعة حديثه ..

الحياة لا تقوم إلا على الحب ولن يبدع العامل فى عمله والمصور فى صوره
والنحات فى تماثيله والشاعر فى خياله بدون الحب ولن تدوم حضارة وتستمر
الحياة بغير الحب .

كيف عاش البشر ؟
كيف تتأثر الإنسانية ؟
كيف أبدع الفنان ؟
بالحب والحب وحده .

قلت : بالغريزة وحب الحياة كما عاش العصفور فى عشه والسمكة فى مائها
والدودة فى مستقرها والفراشة فى شرنقتها والأسد فى غابته .

فهل عند السمكة حب وهل تعرف الدودة طعمه وتتذوق الفراشة حلاوته ؟

لأنها تفرز البيض في الماء ويأتى الذكر فيلقح البيض فيتكاثر السمك وكذلك كل الحيوانات الأخرى .

يصدق هذا على الحيوانات البدائية ولكن الإنسان !! غير هذه الحيوانات .
هل وجدت في الحياة قصة أو شعرا . أو رواية دون حب . وهل خلت
الحياة من الحب .

نعم وجدت الحياة تسير دون حب !!!

وأردفت أقول : أما سمعت بالصين ؟

سمعت وسألته :

هل زرت الصين ؟

كلا لم أزرها وقال :

هل زرتها ؟

نعم وعشت فيها

هل في الصين يعيش الناس بلا حب ؟

نعم

لأنه أمر غريب .

كيف .. يعيشون كما تقتضى المصلحة العامة ومصلحة الشعب الصينى كله ..

لأنهم يؤسسون دولة وتاريخا ، لهذا لا وقت في الصين للحب فهم لا يعرفون وقتهم
بالحب الذى نعرفه ولا يأخذون مادة حياتهم من وحيه ولا يسجلون أدهم من
منبعه إنما مصدر أدهم ووحى شعرهم وأسس مسرحياتهم الحياة العامة
بمشكلاتها وصعوباتها ..

إنها حياة غير طبيعية ولا بد أن تكون هذه حالة موقوتة إذ كيف يعيش البشر ضد مسيرة الحياة وطبيعة الأشياء ..

الروايات والشعر والمسرح والفن تستوحى من الريف وحصاده والفلاح وزرعه وحيواناته ومن حياة العامل وآلاته والمصنع ومشكلاته ومن الثورة ضد الاستعمار وموقف الرجعية من تقدم الصين وانحداره أمام اتحاد كلمة الفلاحين ولضرب الإقطاع ومهاجمة العمل الفردي الذى لا يمكن أن يصل فى مستواه وإتقانه وغزارته إلى ما يصل إليه عندما يتعاون الفلاحون فى تعاونيات تحت إشراف الدولة والحزب الشيوعى أثناء حصاد الزرع وجنى المحصول، فثلاً إذا ضاع طفل فلاح أثناء العمل فوالده يظهر شجاعة نادرة وبطولة ويخفى حزنه فى قلبه ولا يظهره لمن معه لأنه سكرتير الحزب وأنه يعمل من أجل الاشتراكية وإظهار الحزن وإبداء الاهتمام بأمر الطفل معناه شل لحركة العمل لذلك يقول للفلاحين :

إذا كان الطفل حياً فما جدوى البحث عنه وإذامات أو قتل فيجب أن تخفى الحزن حتى لا يفرح الإقطاعى وواجبنا الاستمرار فى العمل لنحيا نحن جميعاً لأن البحث عن الطفل إهدار للوقت وضياح للجهد .

وفى الأدب الصينى يرسم الكاتب مظالم الإقطاع وقساوته وأسلوب الاستعباد فى حكم الشعب الصينى ويهاجم الرجعية بقساوة وبعنف لأنها تؤخر مسيرة الاشتراكية ..

وهكذا كل مسارح الصين ورقصاتهم وكذلك الاوبرا لن تجد فيها الحب بين المرأة والرجل كما تتحدث أنت عنها وكأنى بالصين ألغت كلمة الحب من المعجم

الفكرى والأدبى فلا تجد امرأة تراقص رجلا إنما الرقص يجب أن يكون جماعيا
فى رقصات الحصاد وزرع المحصول وإخراج الفحم من المنجم وصهر الحديد فى
مصانع الصلب وفى حرب التحرير وإنزال البضائع من عمال الرصيف .. لأن
العمل الجماعى أتقن وأسرع من الفردى .

كيف يتكاثر الصينيون إذا كانت حياتهم تخلو من الحب يا صاحبي ؟ !
أتريد الحقيقة ! .. ليس فى الدنيا حب !! أنت تحب الأدب وتشغف به .
أنت مهندس فما الذى دعاك إلى حب الأدب والعناية به ؟ .

إنها هواية ولا بد للإنسان من هواية بجانب عمله ، اقرأ الأدب لأنه أقرب
الفنون المعاصرة للحياة الواقعية .

ولكن لن تجد فيه المتعة التى تلقاها مع الأنثى ولن تلحف وتلح حتى الموت
فى سبيل الأدب إذا منعت عنه وأبعدت عن مزاولته فما رأيت فنانا انتحرا أو مات
أو جازف فى حياته من أجل فنه ..

إنما وجدنا أمثلة كثيرة عند البشر المحبين ضحوا بأنفسهم فى سبيل من
يحبون .

أتدرى لماذا ؟

لأن الله أودع فى الإنسان قوى لم نفهمها ورغبات لا يمكن السيطرة التامة
عليها حتى يستمر الجنس البشرى سمها الغريزة أو سمها الطبيعة أو سمها الحب .

عجب ... !!

دعنا نستمر فى الواقعية التى نحبها ..

تصور من تحب أو من أحببت أيام الصبا والجمال الريان شوهاء مبتورة
الذراع قصيرة القامة هلى تحبها .

أجل أحبها .

كلا سوف تعطف عليها .. والعطف غير الحب

كيف أفرق بين الحب والعطف ؟ !

شئ طبيعي واضح فالفتاة الحلوة والفتاة الساحرة تشعرك بالسعادة والزهو
وأنت تسير بجانبها أما إذا كانت قبيحة فسوف تحس في قرارة نفسك بالحرج .

أنت متشائم .

كلا هذه هي الحياة .. ليس هناك حب إنما هو استمرار للحياة . فالمرأة
تحرص على أبنائها ولو ولدتهم من رجل تكرهه وتغذيهم بروحها وتحافظ عليهم
بكل قدرتها وإن هجرها الرجل وخانها . ومع أن الطفل يمثل الكراهية والغدر
والخيانة .. فإن أمه تحبه وتحبب عليه وتغديه بكل غال ورخيص ..

أكنت تريد أن نتحدث عن السياسة أم عن الحب ؟

فنظر إلى وقال :

أنا لا أحب السياسة وقد بعدت عن مشكلاتها ولكنني أهتم بالإنسان بعد أن
بعد المفكر العربي عنه ولم يتخذ الفكر أداة للتعبير عن إنسانيته ..

قلت : إن السياسة جزء من حياتنا ويجب أن تكون جزءا من الفكر والمجتمع .
والعربي هو جزء من الإنسانية وهو إنسان قبل أن يكون عربيا والعناية بمشكلاته
هي التطبيق العلمى لحب الإنسان وإذا لم يكن العربي جزءا من فكر الإنسان

فكيف تهتم بالإنسانية فإن البشرية ومصلحة العربي يجب أن تنبع من ذات العربي ومن وجوده ومن حضارته ومن ميراثه وتراثه وستجد الصلات قوية بين العرب والإنسان في كل منطلق إصلاحى تحررى .

وفجأة سكّت صاحبي .. واستغرق في صمت .
قلت لأذيب هذا الصمت ولأذهب عنا السكون :
أين سرحت .. فضحك وقال :

أتدرى أن هذه المناقشة التى تناقش فيها هى المناقشة التى ناقشتنى فيها نورية ونحن نسير في خط سيارات طويل بسيارتنا ولم نكن قادرين على الاجتياز فقد دخلنا منطقة منع الاجتياز . وكنا كلما تقدمنا في السير ازداد الخط طولاً وهى تلح في المناقشة وتلح في القول وكنت صامتا حتى إذا انفرج الطريق واتسع وتفرع وأخذت السيارات تذهب في اتجاهات مختلفة وهدأت النفس واستردت راحتها بعد التوتر الشديد خوفاً الصدام قلت لها :

تعالى مكانى على المقود ..

قالت : لماذا ؟

قلت : لأريك صعوبة السياقة فليس من السهولة أن يسوق الإنسان يمينا ثم يغيرها يسارا إلا في المجتمعات العربية . فكم من كان يسير في خط اليمين أصبح يسير في خط اليسار .. وتطوّقت إلى المشكلة التى يعانى منها الفكر العربى المعاصر والتحوّلات الفكرية السريعة عند بعض المفكرين الذين يركبون كل موجة عالية من أجل منافعهم الذاتية .

قالت : لا أفهم كيف يكون هذا الإنسان سويا ؟ !

قلت : عدم الفهم خير لمن يريد أن يعيش !!
ثم صمتنا بعدها فقد انتهى الحديث ولم نكن نسمع غير هدير السيارة وهي
تطوى المسافات طيا وبلا مقدمات قالت باستفهام عجيب :

مالى أراك سرحت فى خيالك وحلقت بعيدا عن السيارة ومن فيها ؟ ولكى
أبعث فى السيارة جوا حلوا . ملت عليها وداعبت شعرها الحلو الرفاف بيدي
اليمنى وشعرت بموجة سعادة عجيبة لأنها وضعت يدها على ظهرى وبدأت تعبث
فى شعرى وتداعبه . وكدت أترك المقود وأعانقها فقد غنت السعادة فى قطعة من
جسمى . وسألتها :

ما السعادة ؟ ما حدودها ؟ هل لها وجود ! .

نظرت إلى بذهول وأخذت تتمم :

السعادة .. السعادة ..

لا أدرى .. كلا إنها شعور جميل .. إنها متعة .. إنها شىء حلو لذيد ..

ثم قالت : بالله عليك ما السعادة ...

قلت : وأنا لا أعرفها ..

إنما هى شىء نسبي .. إنها خيال حلو ، وأمانى عذبة وأحلام فيها نشوة وفيها
رضا .. إنها السعادة ، أجل السعادة ألا تعرفين السعادة .. لا نحس بها إلا إذا
ذهبت يمكن أن يحس بها السعيد كما يرى الجميل الحياة الجميلة يرى السعيد
السعادة والجميل الجمال وقلت بالعربية :

كن جميلا ترى الوجود جميلا .

وترجمت لها جزءا من القصيدة .

قالت : شاعر خيالى لأن السعادة ليست الجمال إنما تذوق الحياة والتمتع بها ..
قلت لها : هل يحس المظلوم بالسعادة ؟ وكيف يراها شعب مستعبد ؟ ستكون
سعادته فى الحقد والانتقام وستكون أمانيه فى القتل والبطش ألم يكن الغزاة الذين
عملوا من رعوس البشرية تلالا سعداء وهم ينظرون إلى هرم رعوس .

السعادة نسبية فالذكى المثقف لن يرى السعادة وهو يرى من دونه فى
الفضل والعلم قد سلبه حقه ومكانه ؟ لأن الذكى اعتر بنفسه وما حابى أو داجى
أو نافق ..

إنه واضح القصد واثق بالنفس بعيد عن الدجل والمراوغة والتهريج ..
قالت : مالك بعدت ..
قلت : الأبله سيد السعداء .

قالت : لا هذا ولا ذاك إنما الإحساس بالسعادة خير من السعادة بلا إحساس
بها .. لأن الأبله لا يحس بالسعادة التى يحس بها المفكر . والذكى يحس بالأمر
قبل وقوعها ويعرف الحدث الفكرى والسياسى قبل غيره وهذه سعادة وإن لم يأخذ
مكانه وبذلك يكون أكثر شقاء لأنه لا يقدر أن يوقف ما يفكر به .. فهو أكثر
سعادة وشقاء .

قالت :

لذلك فأنت أنتعس الناس ..

.. لا . لست ذكيا ولا مفكرا ، أنا مهندس وأنا فنان وأحب الأدب وأحس
بشقاء المفكرين والأدباء .. لأنهم يزنون كل شىء بمثالية عالية والانتهازيون لهم

ميزان يختلف كل الاختلاف عن المثالية والأدب فهم يرون في الانتهازية والاستفادة من الفرص وإن لم يكونوا من الذكاء والثقافة كما ترين ، فيسعد الإنسان الذى يحوطه هؤلاء لأنه يراهم يصفقون ويطلبون فيرى الزيف حقا ويصدق .

- مالك وهذا النقاش ولماذا انفعلت أنت معى وأنا سعيدة ويكفى أن نعيش فى هذه الدنيا ونمتع النفس بما فيها الآن .

- الفرق بينى وبينك بعيد .. أنا أريد أن أفهم الدنيا وأعيش الحياة .. وأنت تريد أن تعيش الحياة وأن تتمتعى بها .. وشتان بين الفهم والمتعة لأن الفكر عملية شاقة والمتعة عمل سهل لذيد . وسرعان ما قالت بلباقة وذكاء :

- أنت رجل لمّاح الفكر . والفكر وحده تعقيد للحياة لأن الذكى لن ينعم بالحياة الواضحة السهلة الطبيعية فهو يحاول أن يفهم كل شىء فهو فى تناقض وازدواج فى حياته وشخصيته . أما الرجل البسيط فلا اصطناع فى حياته ولا تكلف فى علاقاته لأنه طبعى مقبول ..

هذا غير صحيح لأن الإنسان الذى يعامل الناس بصفاء روحى هو الذكى وهو المفكر لأنه يحس بصدق العواطف وعمق الصداقة ولا يفوت عليه المكر السيئ لأن حياته واضحة وإن كانت تلافيف فكره مشحونة بالألم ويسيطر عليه التمزق الداخلى ..

- لم أفهم شيئاً وأنا متخصصة فى علم النفس وأنت رجل مهندس .

- اسمعى يا سيدتى ..

- سمعت وكلى آذان مصغية :

- أولا انتهى إلى الطريق فسوف ندخل في ممر ضيق وأخشى أن تدهمنا السيارة من الجهة المعاكسة .

- لأن مكانك في السيارة الآن منحك بحق فقدته أنا السائق ..
- لا أفهم ما تريد .

- عندما أعود إلى الطريق السوى وأسوق السيارة وحدي أى عندما أكون في أوروبا سوف أشعر بسعادة ولكنها سوف تذهب بعد فترة لأنني مررت بتجربة متعبة ولما ارتحت شعرت بالسعادة .. وعندما تحسن بقدم سيارة تصيحين بسعادة جاءت سيارة ولكنها سعادة لا تحسن بها ملأت قلبك بالرضا والراحة وزادت نشاطك وحيويتك وملأت قلبك بالغبطة .. أتريدين الحديث عن مثل آخر في وطن آخر ..

سكتت لأن الحديث شردها عن الحب وعن اللقاء وسعادتها باللقاء وقالت
بتبرم :

- قل هناك من يكون سعيدا لأنه يفكر بحرية تامة بعد حبس طويل لفكره الذى أخرجه من دماغه .. والمفكر يعيش بتعاسة وشقاء عندما تحبس أفكاره ..
وحرية الفكر سعادة ولكن لا يحس بها من رزق بها ..

- أتريد الفلسفة .. الفكر في حد ذاته شقاء !

- أعرف ما تريدن وشقاء الناس من داخل أنفسهم وفي الغرب بخاصة .
فإن العلم لم يعد قادرا على اغناء النفس والفنون والمخترعات لم توصل الإنسان إلى السعادة كما كان يظن إنما داخله السأم وسيطر عليه القلق وأرهفته الحيرة والخوف من الفناء .. وسبب هذا الشقاء سامة العالم لأنهم لا يريدون غير كراسيهم .

- أردت الحديث معك عن السعادة الفردية . عن ابن آدم عنك عنى أنا
عن إحساسك عن إحساسى ولكنك بعدت إلى مشكلات تفكر فيها وتحملها على
كتفك وفى قلبك .

وأنطفأ مصباح الحوار لأن مصباح الوقود الأحمر للسيارة أضاء منذ نفاذ
الوقود . وكان علينا أن نبحث عن وقود قبل أن ينفد الاحتياطى وتحول المحررى
الفكرى إلى شىء آخر قطع به جزء من الطريق حتى آوينا إلى مكان نشرب فيه
الشأى ونعيد للسيارة رضاها وسعادتها بعد أن جاعت ورويناها الماء بعد أن اشتد
الظما .. وكأننا على ظهر نجية تحب بنا فى الحزون السهول ..

قالت : ماذا قلت ؟ ولما ترجمت لها ذلك ضحكت وقالت السيارة أسرع من
الناقة والأرض ممهدة سهلة ..

كان الجو حلوا جميلا صحوا فتركنا المقهى وما فيه من طعام وشراب للبشر
وللسيارات .

وقلت : هل تودين أن تسوقى السيارة وأنت سائقة ماهرة ؟

- أحلى ساعة أن يكون السائق بجانبى رجلا فأتمتع مرتين أو أسعد مرتين .. !

لا أسوق وبجانبى رجل أحبه

- كلا أجمل الساعات أن تكون بجانب الرجل فاتنة حلوة تحلم بالشرق
والغرب مرة واحدة .

- أليست هذه هى السعادة بجانبى رجل وأنا أحبه .

- أجل ياسيدتى فالصلة الوجدانية تحقق السعادة الروحية فقط ! ؟ .

- لأن مجتمعنا المادى لم يترك هذه الصلوات نقية ومع ذلك فأنا سعيدة رغم
مثاليتك !!

فأنا سعيدة أكثر من مرتين .. !!

- وما هى الثالثة ؟

- لأنى قابلتك .

- هل وجدت فى حياتى ما يشابه حياتك من مشكلات نفسية ؟ .

- ليست فى حياتى مشكلات . سعادتى لأننى حققت أمنية .

- لهذا أصبحت سعيدة ؟ معناه أن تحقيق الأمنية انتهى وسوف تنتهى

السعادة وقد تكون شقاء اذا ما وجدت ما يغير الأمنية !

- أنت قاس

- أنا واقعى . وأكبر سنا . وأكثر تجربة .

- مع النساء ؟ !

- مع الحياة . والنساء جزء من الحياة !

- هلى أحبيت كثيرا ؟

- أغيرة أم استجواب نفسى ؟

- لا أدرى .

وبينما نحن فى حديث حلوشهى بدأت تظهر باصات لندن تختلط بسيارات
الضواحي الخضراء .. كنت فى دوامة عميقة من الفكر وصراع بين القلق والحيرة
وبين هذا الحب الذى لم أكن أحسبه واقعا يوما فقد غرقت فى لجة من السعادة
وغمر كل جوانب عواطفى .. ولكن ما شاهدته فى كولون من هدايا للرجال كانت

حفية بها تختارها اختيارا جرعى مرارة الشك وسيطر على عقلى !

هل كانت نورية صادقة فى حبها ؟ أم أنها تريد زوجا وخطرلى فى الطريق
ألف سؤال وسؤال . وألف رد ورد أقلب الآراء على جميع الوجوه فيغلبنى قلبى
ثم ينتصر العقل وسرعان ما يخسر المعركة . أريد أن أقنع نفسى بأن نورية تحبى
لأننى (كامل) لا لأنى رجل .. وسرعان ما أحس بضحكة العقل وسخريته .

أنت مجنون .

لا أنا عاقل .

أتظن نفسك سعيدا ؟

لماذا ؟

لأنى أشعر بالسعادة تناسب إلى كل شعرة من جسمى .

أشك أنت مخدوع .

أحب هذا الخداع لأنه أراحنى وأسعدنى وأتمنى أن أكون دائما مخدوعا بمثل
هذه السعادة .. مادامت حلوة عذبة جميلة فقد أعاد الخداع الرضا إلى روحى
والهدوء إلى جسمى وشعرت بالحنان وأحسست بالدفء بعد سنوات من الجفاف
الروحي فى الشرق .

وبحك أسرفت !

.. ..

إنها تربت فى أمريكا .. وإنها فى الطريق إلى أمريكا أو أسبانية وماذا عن
أمريكا وأكثر المفكرين والأساتذة والعلماء جاءوا منها .. أليست هى بلد
الاختراع والحضارة .

نعم والقنبلة الذرية في هورشيما وناجازاكي .
- ألم تعرف في أمريكا رجالا . ألم تملأ قلوبهم بالحنان والدفء والرضا
والهدوء مثلما ملأت قلبك .

- لا يهمني الماضي لي الحاضر . إنها لي وسوف تكون لي ولن تفرط بي
مادمت وفيها لها .

- ما يكون موقفك لو اتصلت برجل آخر .
لن تتصل ولا أظنها تفكر فأنا خاتمة المطاف .
- أتراها ترضى بك وأنت مسافر إلى لندن من أجل حب . قديم ؟ أبها
الحائن !!

- لست خائنا مادمت أحس معها أكثر سعادة ! .
- وجبك القديم ؟

.. ..

أجب لماذا اعتراك الدهول والسكوت ولم وجمت ؟

* * *

كان الحوار الداخلي يأخذ مسراه الجاد وكنت أفكر بعمق ظاهر دون أن
أعرف أنني استغرقت وأني ذهلت عنها وعن نفسي .. ولو لم يكن الطريق
مستقيما لحدثت كارثة وسرعان ما انتهت وقد تصبب جسمي من العرق وبدأت
حباته اللؤلؤية تتساقط على صدري وأخذت نورية منديلها وأخذت تمسح العرق
عن وجهي ..

ومررت على جوسق تليفون فأوقفت السيارة ودخلت جوسقه وتأكدت من
أن مكاني محجوز ونسيت أن نورية معى .. وفجأة خطرت في ذهني خاطرة
أخذها معى ..

ولكن لما وصلنا لندن استأجرت لها مكانا في فندق امباسادور في جوار
شارعى ..

نظرت إلى كامل وقد أخذ منه الشراب مأخذه وأمسك الكأسين بيديه
وسرعان ما سقطا بما فيها من شراب على فراش الغرفة وكانت دموعه تجري
بصمت مع شهقات البكاء .

.. قلت له علام البكاء يا كامل ولماذا كل هذا الألم . وأخذت أعينه على خلع
ملابسه وأدخلته فراشه وقبل أن أودعه قال :

هل تظن أنى سوف أنساها ؟ لا سوف أراها في المنام فهي معى فى الشارع
والبيت والجامعة وكأس الشراب والحائط وأراها تصعد مع زفرائى وترسمها
دموعى .

إنها حياتى ومتى أنسى حياتى ولما هدأت حركته فى فراشه خرجت وأقفلت
الباب لأتركه يرتاح جسمه وتستقر روحه بعد هذا العناء القاسى .

ذكریات

فی ساحة الجامعة بین معهد الدراسات الشرقیة و بین کلیة التریة لقیئت
(کامل) فقال :

أسمعت ؟

ما أسمع وهل هناك أخبار ؟ أكثر مما حاق بوطننا ؟ !
وأردفت :

لا یوجد خبر یفوق ما عمله الإنکلیز بنا
وأكمل : والفرنسیس والیهود ..

- الإنکلیز رأس المصائب .

أعرف عداؤک للإنکلیز منذ کنا طلابا .

- ألا یستحق الاستعمار الإنکلیزی العداة والکراهیة ؟

لم أقل إنه لا یستحق ، کل استعمار یستحق اللعنة مهما جاء بأثواب جدد
وأسلوب ناعم .. لکنک بدأت بالإنکلیز مع أن الیهود هم أصل البلاء ..
وإسرائیل بنت بریطانیة البکر .

- کلا یا صاحبی إن الإنکلیز قة المصائب التي حاقت بالوطن العربی کله .

- هذا منطق الحیاة . القوی یسيطر والضعیف یستخدم ، لیس هناك حق

إنما هناك قوة .. ولليهود أساليبهم في إقناع الغرب والوصول إلى مصالحه لأنهم فهموه فاستغلوه فقد أقنعوا إنكلترا فأعطتهم وعد بلفور لما طرد السلطان عبد الحميد هرتزل شر طردة وأعانوا الحلفاء على استعمار الشرق وتقسيم الامبراطورية العثمانية .

وكان العرب في سبات لا يعرفون ما يحيق بهم من مكر سيئ وعندما تعاون العرب مع بريطانيا وفرنسا كان جزاؤهم معاهدة سايكس - بيكو التي قسمت بلادهم دولا وامارات وحكومات ظاهرها عربي وباطنها غربي ..

- ألا تعرف أن الصهيونية العالمية هي وراء الاستعمار .
- أعرف ذلك .

- هل تعرف بأن « صديق » العرب الكبير لورنس دفع العرب لمحاربة الدولة العثمانية للقضاء على العرب أنفسهم وعلى الامبراطورية التي كان يخاف منها الغرب وبذلك قضى على الوحدة الإسلامية وعلى الفكرة العربية .

- لا تموت الفكرة العربية مادام العرب في الحياة ، ولكن الغرب يخاف من الحضارة الإسلامية والتراث العربي وحسب بأنه قادر على القضاء عليهما بالتفريق بين العرب وبذر الكراهية بينهم .

- أرى العربي بعيدا عن حضارته خائفا من تراثه مترددا في دراسته فكل من اعتنى بالحضارة الإسلامية والتراث العربي يوصم بالتخلف والرجعية ومن أحب وطنه وأمته فهو متخلف متعصب ، وعندما يدرسون هم تراثهم ويعنون بحضارتهم فهم تقدميون متحضرون .

- خلقوا حكومات تسير في ركابهم وبثوا الفرقة والقطيعة بين العرب وسادت تناقضات عجيبة بين الأمة الواحدة وكثرت الانتهازية والزلفى والرياء وشك العربي في حاضره وبدأ القتال بين الأخوة والشتائم بين الجارين .

- ما هذه المناقشة في هذا الصباح هيا إلى عمل إيجابى فنحن في معركة ضارية ومصر تقاتل بضراوة وإذا غلبت مصر فلن تقوم للعرب بعدها قائمة .
- إن لهذا البيت ربا يحميه . ورحم الله حافظا القائل :

أنا لو قدر الإله ممانى لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدى
ما رماني رام وراح سليما من قديم عناية الله جندى
كم بغت دولة على وجارت ثم زالت وتلك عقبى التعدى

- علينا الآن أن نعمل حسب طاقتنا وبسرعة وأرجو أن تترك عملك الجامعى هذا اليوم من أجل العرب ومصيرهم .

انتقض كامل كالأسد الجريح قال :

- هل طلبتم منى المساهمة فأبيت . أنا أخدم بلدى جميعه لقد ساهمت في يوم فلسطين والجزائر وجميع الحفلات التى تقارع الاستعمار وتخدم وطنى الأكبر ، ورفضت الهجوم على الشعوب العربية والأنظمة المختلفة .. لأنى لست بوقا أو لسانا لنظام أو أداة من أدوات الحكم يجب أن يكون العمل لصالح العرب كلهم داخل بريطانيا نترك البغضاء والشحناء ، إن عقيدتنا واحدة وإيماننا بأمتنا ووحدتها واحد .

- أرجو ألا تثور .. هيا هيا .

وأسرعنا إلى مكان الاحتفال وأخذنا نوزع النشرات على طلاب الجامعة
وندعوهم إلى الحضور إلى الطرف الأغر حيث يحضر نائبان من مجلس العموم
يتحدثان في الاجتماع ويناصران قضية العرب ويخطبان ضد أعمال الحكومة
الإنكليزية وقد أعدت المنشورات لتلائم الفكر الغربي منها .

نريد السلام

أوقفوا الحرب

لا تقتلوا أولادكم في سبيل الباطل .

وأخذت عددا من هذه المنشورات وكان معي زميل إنكليزي ما كان يفارقي
طوال أيام الجامعة وكان يعتمد على في دراسته اللغة العربية وأصبحنا صديقين .
قلت له :

أنا ذاهب أعلق هذه النشرات في كليات أخرى ثم أذهب إلى الطرف الأغر
وأرجو أن تأخذ هذه النشرات وتعلقها في حجرة الطلاب والنادي .

وانفض الاجتماع وعدنا إلى الجامعة ولقيت صاحبي ولم أجد منشورا واحدا
معلقا وسألته بلهفة : أين النشرات ؟ فأخرجها ببرود إنكليزي وسلمها لي فعلقتها
وجلست معه وأخذت أهاجم سياسة إيدن بمرارة وألم . ولم أبق في جعبة القول شيئا
إلا قلته وكان صاحبي ينصت بأدب وبعث ففرحت لهذه العناية والإنصات ومن
ثم أعلن التصويت على أعمال إيدن بين الطلاب فكانوا صفين ، الصف الأول
يوقع بورقة ضد سياسة إيدن والحكومة الإنكليزية ، والصف الثاني يوقع مع هذه
السياسة .

كنت جالسا أشرب الشاي مع صاحبي حتى يحين وقت الإدلاء بصوتي فقمنا
معا فوق صاحبي مع إيدن ووقعت ضده .

وعدنا إلى أما كننا ولم يذكر شيئا أو يعتب على أو حتى أن لهجته في الحديث
لم تتبدل . وعرفت لم لم يعلق النشرات وكان عجبى أشد كيف أنه لم يمزقها
ويعسك بخناق ؟ ولو اختلف طالبان من العرب لجر هذا الاختلاف الفكرى
العداوات .

تركت الجامعة وذهب كامل إلى بيته وأخذت القطار الذى يسير تحت
الأرض لأعود إلى كامل ولكن ما دار فى الكلية وانشغالى بمصر أخذنى بعيدا فى
الهواجس والتفكير وشملى الاضطراب والحيرة فلم أعد أرى شيئا حتى وجدت
نفسى وتنبت لأن القطار خرج إلى سطح الأرض ووصل ضواحي لندن .

وعدت بالقطار نفسه إلى دار كامل بعد أن ساقتنى هذه الذكريات إلى
سنوات الدراسة ونسيت بها نفسى وأنا أفكر بكامل الطالب وكامل المحب النضر
الحديث الطرى الأسلوب .

الوداع

كنت أعطيت صديقي ليلة كاملة يستريح فيها من المعاناة التي آلمته فقد كان مجهوده الروحي عنيفا ، وكان ندمه على ما فرط كبيرا ومع جمال قصته ومأساته سعدت بها لأنني كنت أستمع إلى كامل وهو يتحدث عن سر من أسرارهِ التي كنتمها عن كل إنسان ولا يعرف سره سوى ولم تكن التعلات التي جاء بها واضحة ولكني كنت أسخر في قرارة نفسي من إنسان ابتلى بالغرب وابتلى به ويعشق هذا العشق ولعل الحرمان الشرقي القديم آب إليه لأنني لم أجد في الغرب حبا عذريا ، لأن الفتاة تسخر من هذا الحب إذ كان في سن النضج ولعل سفر نورية وإحساسه بفقدائها أثر فيه ولعلها تركته لأنه خيالي لا يساير منطقها الغري الأمريكي .. وحبا الأسباب العارم .

ذهبت لأكون معه ولما طرقت الباب فتحه وكانت آثار الإعياء والإرهاق والتعب تصرخ في عينه ووجهه ومحياء ، فقد كسسته بلون باهت ذابل . فقال ونحن أمام الباب :

- لماذا تركتني وذهبت ؟
- لأنك سكرت ولأنك تحتاج إلى النوم والراحة ..
- صحوت بعدك وبقيت ساهر الجفن ساهد الروح .
- ألا تزال تعيش في الوهم ؟ أتوجد امرأة في الغرب مهما كانت فتنها

وملاحظتها تستحق هذه الدموع وهذه الأحزان - عد إلى رشذك يا صاحبي. ثم إذا
بي أغضب وأعنف وأنهال عليه لوما وتقريعا وبينما أنا في غضبي ابتسم في وجهي
ابتسامة الطفل البريء وقال :

إنه وهم حلوه. وحب سعيد. وشقاء لذيد. وألم جميل. قلت : مسكين.
إن الذين يعيشون بالعذاب لا يحسون به ولا يتذوقون طعم السعادة .. أين
فلسفتك في السعادة ؟ وكأنى بك لا تحب العيش إلا في الشقاء وقد استمرت
العذاب وجنيت على نفسك وعليها ومادمت أحببت الشقاء فعش به .

لكن البسمة لم تفارق شفثيه ولم تبرد أساريه وأمسك بي في قوة وأجلسني
على الكرسي وقال : أجلس فما سمعت النهاية .

برمت بحديثي وأنا أخلص في القول لن تسمع مني حراما أيها المادى الكافر
بالروح وحلاوتها الجاحد للمثالية وسعادتها . وأخذ يتدفق حرارة وألما ، ولكنى لم
أتركه يتحدث بل أرغمته على خلق لحيته وارتداء ملابسه لأذهب به إلى حدائق
(هايد بارك) مادام الجو صحوا جميلا ، وقلت سوف أسمعك . وأستمع إليك
ونحن نسير في الحدائق وسوف أمتع عيني بالغيد الحسان ولا أشك في أن فيهن من
هن أكثر جمالا من نوريتك في القوام والجسم والفتنة والسحر والشعر .

وما أن خرجنا إلى الشارع حتى مررنا بفندق الامبسادور فرجاني أن يعرج
عليه وتحدث مع المشرفة وعاد وهو يضحك قائلا :

- أتدرى ماذا صنعت ؟ .

- قلت لا ؟

قال حجزت غرفة نورية التي كانت تسكنها ؟ !

- هل تعود نورية ؟

لا وإنما سوف أنام أنا ليلة واحدة فيها وأفترش فراشها الذي نامت فيه وأعيش معها في الأحلام . وسوف آتيك في الصباح فلا تترك دارك .

- قلت : مجنون تركتها وهي في أحضانك وترنمى عليك ، وتذهب إلى فراشها هل أنا مثلك مجنون !

- مجنون والله مجنون .. وأردف : « ما لذة العيش إلا للمجانين » .

- لم لم تقل : قالوا جنت بمن تهوى فقلت لهم .

- قال : تركت الصدر لك لأنه يملك وأنا ما يهمني منه .

مشيت وصاحبي حتى وصلنا إلى النوافير الجذلى وقد جلس الناس حولها يتمتعون بأشعة الشمس ويراقبون الطيور الطليقة والبط السابح ويمتعون أنفسهم بالجو الجميل يفترشون الحشائش وبلا مقدمات قال :

هذه المحلات زرناها وعشت في لندن أجمل أيامى وذهبت معها بسيارتي خارج لندن ولا تسل عن المحلات فأنا لا أعرفها وقد كان الشك يعذبني ونفسي وكأنها كانت كالسفينة التي أخذها الموج ولا تعرف لها مستقرا وكنت الموج نفسه الذي يرتفع وسرعان ما يذوب في البحر فلا أجد نفسي من حيرتي أأتزوجها ؟ أتركها ؟ كنت بين أمرين أحلاهما مر ؟ وكانت أسرع برما مني فقد كانت لها آمال واضحة تقف على شواطئ ظاهرة الضفاف وكنت بلا أمل ولا جرف .

وفي يوم من أيامى معها تركتها في الفندق لأعود إلى دارى أو الشقة التي

كنت أريد أن أتزوجها فيها وفي عودتي قابلني جوسقا فيه التليفون وبلا شعور أو
إرادة ظاهرة اتصلت بإحداهن ولم أجد نفسي إلا في دارها وكانت متعة روي
وجسدي أيام الشباب فذهبنا سوية وقضينا ليلا أحمر الجلباب راقص الأحلام
خمرى الشذا ولم أعد إلى الدار إلا مع بسمة الفجر للآمال ولم أحس أين نمت
لأنني لم أخلع ملابسى ونمت بها وفي الساعة صباحا دق الجرس بعنف فقامت
مرعوبا فوجدت نورية في الباب وأنا في كامل ملابسى وكانت لحيني طويلة
وشعري منكوشا والرباط مهدلا .

فوقفت وعلى وجهها ابتسامة ساخرة غاضبة وقالت : أخرج أنت الآن ؟
أنت ترتدى ملابسك كاملة ثم تحولت إلى إنسان مرعب مخيف وأخذت ترتجف من
الأم وقالت :

أين كنت البارحة ؟

كنت مدعوا ..

- أنت جئت لتنام الآن ؟!

- شمت الوحدة فخرجت مع ضيف طارق .

لم لم تأت لى وتأخذنى معك وأنا جئت لأجلك .

- لأنى أردتلك أن ترتاحى .

- هل تظن الخروج معك مشقة ؟

لم أكن أجرك جرا إلى السهر معى ؟

لم أكن ألبسك ملابسك وأسحبك من فراشك ؟

- نعم وكانت سعادة حلوة .

- لو كنت تحس بالسعادة لما تركتني وخرجت مع ...
ولم تكمل عباراتها فقد ارتج عليا وأحسست بأنها مغلصة في كل ما قالت
وأنتى ذهبت وراء لذة عابرة واسترجاع ذكريات باهتة ونزوة سخيقة .

ثم نظرت إليها بضراعة وانكسار وكأننى طفل كسر لعبته الجديدة لأن المنطق
لم يسعفنى ولأنها كانت على الحق وما أردت أن أكذب وجلست ووضعت رأسى
بين يدى وأسلمت نفسى إلى الحزن .

وبهدوء عجيب أعدت الفطور وهيات لى الحمام وناولتنى أدوات الحلاقة ثم
نامت على الأرض وتركتنى فقد كانت بحاجة إلى نوم أكثر منى .

وخرجنا عند منتصف النهار نجوب الأماكن التى كنا زرناها، كانت تقف عند
كل زاوية وتسير فى كل حنية سرنا بها وأخذتنى إلى الكلية حيث أكلنا أول وجبة
فى لندن .

ووقفت عند باب الجامعة ووضعت يدها تحت إبطى وكنت هائما بين السعادة
والخيرة والخوف ..

قالت: هذا اليوم لى ولن أتركك تهرب .. وعدنا إلى الشقة وبعد الغداء نامت
واستراحت وأخذتنى إلى مكان جميل ، وقضيناها ليلة ممتعة معربة فى رقص
وكانت ترقص رقصا لم أر أحسن منها فنا ولا أبدع إيقاعاً وحركة ولما سكرت
وفقدت الوعي نامت على صدرى قالت :

أين كنت البارحة ؟

جئت إليك خمس عشرة مرة كنت أتصل بك كل نصف ساعة وكان

التليفون يرن ويرن ولم أنم الليل كله وكنت مشتاقة لأهب لك روحى كلها
ولكنك لا تستحق غير الكراهية لأنك خدعتنى فأنخدعت. بـجـبك .

أحببتك من كل شعيرة فى قلبى وها نحن نفرق لأنك لا تعرف السعادة
ولأنها مرت عليك فلم تمسكها حتى بأصبع من أصابعك .

وبلا شعور قلت لن يفرق بيننا حتى الموت .

وبسخرية جامحة قالت :

الطيارة سوف تفرق بيننا ، ثم أربدَّ وجهها وتدفق القول على لسانها
وقالت :

اسمع .. اسمع . اسمع وكررتها ثلاثا وفى كل مرة لها معنى أنا مسافرة إلى
جهتى .. وسوف أتزوج لا تندهش ، لا تنظر إلى بىلاهة فرصتك ذهبت ولن
تعود .. أنت متردد .. وتخاف .. أنت من الشرق وأنا من الغرب وكانت
شجاعتي أكبر من شجاعتك سوف أكون حلما من أحلامك وستكون طيف
سعادة أحيأ بها طول عمري .

أعرف أنك عشت فى لندن ولك فيها صواحب وقد صرفتك عنهن .. كنت
أظنك تقابل تضحيتى بالرضا فتركهن من أجلى وكنت على استعداد لترك خطيبي
من أجل السعادة التى نلتها معك .. وسكتت وبغضب قالت :

اذهب إلى الإنجليزيات الباردات الدم الثقيلات الظل القليلات الوفاء ..
هل تصدق أن إنكليزية تخلص لك مثل إخلاصنا فى أسبانيا ..

سوف تندم على فرصتك أن كنت حقًا تحبني وسوف تنام بشبابك عندما
أسافر بالطائرة . وارتمت تجهش بالبكاء وأخذتها بين أحضانى وكان الليل قد ذهب
أكثره وكانت الخمرة قد أخذت طريقها فجلسنا على الرصيف ثم نمنا عليه وكان
الشارع خاليا ومر الشرطى ولم يكثرث بنا وأصعدتها إلى فندقها ولما نزلت قالت
ربة التزل :

لماذا تركتها وحدها وبنظرة ساخرة مأكرة قالت : لها يومان تنتظر .. آه
يا رجال ..

عدت فى سكرين وذهولين ولم أقدر على خلع ملابسى ونمت على أرض
الغرفة وبالحذاء اذ لم أكن قادرا على خلعه فقد تاهت روحى بين الحياة والموت .

وفى الصباح ذهبت إليها ووجدتها قد جهزت حقائبها فقالت :
هل تحب أن تودعنى فى المطار ..
والغريب أن حواسى قد تبلدت وكأنى لا أودع أحب شىء لى وكأنى أودع
إنسانا مفروضا على .

وسكت وأطرق صاحبى .

قلت له : ويحك .

وماذا بعدها . فلم يلتفت إلى وإنما أخذ يرمى بفتات الخبز إلى البط وهو
يتزاحم على اللقيمات الطافية . أتريد أن تعرف الباقى ؟

— أعرفه وإنما أقول ما بعد ذلك فقد رأيتك فى جنونك وأنت تحديق فى
الفضاء تطلب النجدة من المجهول .

وعدنا إلى الدار وأعاد على المنظر نفسه : كأسان من الخمرة ودموع تسيل
وكل مرة ينظر في ساعته ويقول كنا في هذه الساعة في المكان الفلاني وفي هذه
الساعة عملنا كذا .

قلت : هل نذهب حقا إلى الفندق قال حتى أنتهى من كأسها , وذهبت معه
إلى الفندق فقد كان يترنح وأخبرت ربة الفندق أن تتصل بي إن حدث حادث له
ولما دخل الغرفة تمرغ في أرضها ونام في الفراش وذهب إلى الحمام وكان كالمجنون كلما
شرب كأسا زاد جنونا حتى خدر ودخل الفراش وآثرت أن أتركه ليرتاح .

وسكبت ما بقى من شرابه في المغسله لثلا يعاود الشراب ويعاوده الإرهاق
الروحي .

بعد عشرين سنة

عدت إلى بغداد وانشغلت بأمور الحياة وبأعمالى فى الجامعة ولم يكتب لى كامل إلا لما وفى المناسبات وكنت أقرأ عن تفوقه وتقدمه ما يسعدنى ويملاً نفسى وأسمع من زملاى ما يزيدنى فخراً به فقد أصبح من أشهر المهندسين وعهدت إليه قضايا كبيرة وكثيرة وكم من مرة ذهبت إلى القاهرة ولم أكن أراه وكأن الصدفة العجيبة كانت تحجبه عنى وكنت أشد كسلاً منه .

وبينا كنت أسير فى شارع قصر العبنى فى طريقى إلى معهد الدراسات والبحوث العربية للإلقاء محاضرات فيه استوقفنى شخص وسلم على بجرارة واحتضننى .. أحسست بأنه إنسان حبيب ولكن لم أعرف بأنه كامل إلا بعد أن تفرست فى ملامحه وملاقتى صوته ورنث ضحكاته الحلوة فى أذنى .

لبس النظارات وأبيض شعره وكبر جسمه ولكنه مازال قوى الجسم والبنیان ، شاب الروح والإيمان ودعانى معه :

قلت بعد المحاضرات .

قال أتحب الغناء أم العشاء على قصة نورية ؟

فضربت على كتفه وقلت : نورية أيضاً أما تنساها ؟ أريد قصة نورية

بلا عشاء .

قال أجمع لك الإثنين .

وجاءنى فى المساء بسيارته الجديدة وذهبنا إلى شاطئ النيل التى كانت همساته
تنساب فى يوم من الأيام فى روى وجماله يتدفق فى مشاعرى وهل هناك أعذب
من النيل روعة وأحلى منه فتنة .

كان مع كامل غلاف جميل اعتنى به عناية ظاهرة وطواه بكل رقة ولما فتحه
قبله وقال هذا مكان أصابعها اقرأ هذه الرسالة :

السبت فى ١٥ تشرين الأول ١٩٦٢

بالصدق يا عزيزى إن ما بى منك أكبر من أن تسمى حبا . إنها دنيا أنا وحدى
أحيائها . وأتمنى محاسنها وأغترف من نبعها إنها أنت يا صديقى ولا شىء إلاك .. !

لقد نقلتنى يا صديقى من عالم إلى عالم . من فراغ هائل كنت أحسه فى كيانى
وفى كل ذرة من ذرات نفسى إلى نشوة سماوية أراها ملأتنى وغمرت أسبابى فأنا
اليوم منها بين سعد غامر ووحى عذب جميل .

لقد آلمنى يا صديقى وحز فى نفسى أن أقرأ لك فى أثناء رسالتك الرقيقة مثل
هذا « إنه وجدها وقد صارت بينهما مسافات من القدر . وأجيال من
الدهر .. » !!

أجل لقد آلمنى وحز فى نفسى يا حبيبى أن تحدثك نفسك الحلوة الصافية أن
يكون بينى وبينك ما أسميته « مسافات » و « أجيال » .

إن الذى بيننا يا صديقى نهزأ بالمسافات والأجيال وإن الذى بيننا فوق المكان
والزمان .. إنها يا صديقى صلة الروح بالروح ولن يقف بين الروح والروح حائل .

إنها يا صديقي واحدة شطرت شطرين يحملها هذان الجسدان الفانيان .. إنها
تنجذبان كل إلى الأخرى مادمننا في الحياة .. وفي بعد الموت .. !

فإنك إذن يا حبيبي .. أنت معي رغم كل الحدود وأنت لى معنى الحياة
والوجود وإننى على مقربة منك ؟ ! يا صديقي إنه قلبى بين يديك وقلعى أستلهمه
من عينيك وحياتى كلها وقف عليك .. وهل بعد هذا كله زيادة لمستزيد ؟ !

لقد ملكت يا صديقي مالم يكن يحوزه أحد ولن .. ! وأقسم .. !
اصعد معى يا حبيبي فى ساق الأجرء وتعال نرتفع بروحينا عن هذه
الأرض ، ولا تقل بعد اليوم أنها ليست لى .. ليتها كانت لى .. ! إنها هى
بكيانها بروحها بقلبها بفكرها لك وحدك دون غيرك .. أما جسدها الفانى فهو
ملك الأرض ولن يكون إلا للأرض كلها أردت .

يا صديقي هونك بعض التجنى ولا تلتمس فى ما عرفته فى أخرياتك
الإنكليزيات .

انظر إلى كما أنظر إليك وامنحنى من نفسك بعض ما منحتك منى .. امنحنى
منك مالا يستطيع أن يمنحه إياى سواك .

كن لى كما كنت لك أنت يا من أوحيت لى بما عجز دونه الآخرون ..

وأنت يا حبيبي .. أنت ؟ .

أترك ما تزال ضنيننا على بالكلمة المطمئنة والوعد المؤكد وتلبية أيسر
الرجائب وأهون المنى .. ؟ !

-أمازلت أيها الحبيب باخلا على بالترر اليسير..

أنا التي غمرتك بالوفر الكثير.. ؟
أما زلت يا حبيبي أما زلت .. ؟

نورية

فنظرت إليه فرأيت صاحبي مطرق الرأس حزينا قلت : أين الرسالة التي أرسلتها لها قال : ومن أدراك بأن عندي هذه الرسالة قلت : لا بد أنها غضبت منك وقاطعتك وأعادت لك رسالتك مع هذه الرسالة لأنها تحبك وأنت تخاف من حبها لأنها صادقة ومخلصة وأنت متردد فزع من أمر ، فأخرج الرسالة وقرأ لي منها :

عزيزتي نورية

الآن وقد ذهب الجميع ولم يبق لي من عمل سرحت ببصري خارج الحجرة فتأملت صورتك الحلوة ولقي العينين الساحرتين ورأى شعرك الحلو الجميل ..

لا أدري هل تحسین ما يحس إنسان للمم جراحه ونسى حلم حياته وعاش من الدنيا عمره وثید الخطی ، مثقل الأمانی ، إنسان كان قد وضع أنغامه على عتبة الحب ولكنه نكص ولم تبق له من تلك الأمانی غیر نغمات أنيقة مشرقة بعثت فيه الهممة نحو التغرب .

وبعد أن مضت السنون مكدودة الخطی وجدها وإذا الجرح القديم الغائر الذي اندمل يثور ، إنه وجدها وقد صارت بينهما مسافات من القدر وأجيال من الدهر فأخذ يتملى الطلعة الحلوة ويحلم في عينيها الوادعتين الرائعتين فإذا صوت من قرارة الماضي السحيق ينغم له حاله ويحيب إليه حبه .

أليس هذا حبك الغالى ؟ .

وأمانيك العذاب ؟

ألم تفعل السنون في القلب وقد مرت به حسناوات الشرق والغرب أم يخمد
ذلك الأوار وكيف تجمع في ضمير الزمن هذا الحب العظيم ؟ ! .

إنه لقيها وكأنه طفل صغير فضاع في تيار الحب العظيم ..
وكان اللقاء غريبا على نفسه ، كان أرق مما رآها وأحلى مما عرفها وأجمل مما
تصورها ..

أليس هذا الأمر من العجائب ؟ وهذه الأخيلة متنافرة كيف يحيا الحب الذي
تمر به سنون وأعوام ألم يقل الشاعر العربي :
إذا رمت أن تسلو حبيبا فخله وراءك أياما وعد الليالي

والواقع أن هذا الحب الذي حدثنا الشاعر عنه لم يكن قد تسربل في القلب
ولم يفارقه وإنما هو حب المسافر أو حب الغربة أو حب الحاجة أو حب الخوف
ذلك هو الحب السريع الذهاب . وقد يكون من الغريب على في مثل سنى من
الاتزان والرزانة ومن العلم والهدوء أن أكتب مثل هذه الرسالة .

ولعل المشكلة هي أنني أختار الكلمة وأخشى ترك الكلمات تسرى جزافا وما
أدرى ما أسميه هو الخوف أو الوجل أم الصديق في ارضاء المحبوب وصدق البهاء
زهير :

أيها السائل عن وجدى بها إنه أعظم مما تزعم
ولقد حدثت عن شرح الهوى أنت يا ربى بحالى أعلم

كامل

وأخذ الرزمة منى فسقطت ورقة بها عدة تواريخ :

١٤ نوفمبر

٦٢ / ٤ / ٢٥

١ حزيران

/ ٢٥

٤ / ٤ / ١٩٦٢ المولد الجديد .

وقال يكفى ما قرأت ولكن خير رسائلها التى وصلتني تلك التى جاءت بعد
عبورنا قناة السويس فقد قالت :

عزيزى كامل

آمنت بأن العرب سوف يكون لهم مكان فى التاريخ المعاصر ، وآمنت بعد
هذا الزمن الطويل بأن إنسانا مثلك خير من مثل العرب فى آمالهم وأحلامهم ولا
أخفى عليك أن يوم الهجوم الأول والثانى وحتى الثالث كنت أشك فى قدرتك
على العبور وانتزاع النصر من اليهود فقد أوهمونا بأنهم القوة التى لا تقهر وأنهم
شرطى الغرب المتحضر على العرب المتأخرين فإذا بالشرطى يقبل يد العربى
ويشهد له بالبطولة فيما يصنع وبالشجاعة فيما أرى وإذا بالعالم كله يقف إجلالا
ويصفق بحماسة للنصر الكبير الذى انتصر به الجيش العربى المصرى على اليهود .

وأن كان لى من قول فأرجو أن تتذكر تلك المناقشات التى كنت تثيرها والتى
لم أكرت لها وأن النبوءة الصادقة التى تنبأت بها بأن العرب سوف ينتصرون قد
تحققت فأعترى عن عدم الاكتراث وأقدم لك التهانى بهذا النصر الذى ملأنى
فخرا بأمتى العربية .

نورية

وأعدت الرسالة إلى الظرف الجميل ووضعها بعناية وقال: أتدري أن هذه الرسائل آخذها إلى كل مكان أسافر إليه وأقرأها في كل محل أحله لأنها كالتيمة والحارس لي وأصبحت أتفعل بها ولا تندعش إن قلت لك إنني رأيت نورية في القاهرة مع زوجها الذي أرسلته الحكومة الأسبانية لعمل في القاهرة ولم أتحدث معها كيلا أخرجها وأنخر الجرح القديم لأنها نسيت وشأن الحسان النسيان ..

نظرت إليه وقلت :

مجنون .. والله مجنون .

من مؤلفات الدكتور يوسف عز الدين

- ١ - الشعر العراقي في القرن التاسع عشر خصائصه وأهدافه
بغداد وزارة التربية ١٩٥٨
القاهرة الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٥
القاهرة دار المعارف ١٩٧٧
- ٢ - الشعر العراقي الحديث والتيارات السياسية والاجتماعية
بغداد وزارة التربية ١٩٦٠
القاهرة الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٥
القاهرة دار المعارف ١٩٧٧
- ٣ - خيرى الهنداوى حياته وديوان شعره
القاهرة معهد الدراسات والبحوث العربية ١٩٦٥
بغداد جامعة بغداد ١٩٧٤
- ٤ - في الأدب العربي الحديث بحوث ومقالات نقدية
بغداد جامعة بغداد ١٩٦٧
بيروت والقاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣
الرياض دار العلوم ١٩٨١
- ٥ - داود باشا ونهاية المماليك في العراق
بغداد دار البصرى ١٩٦٧

- بغداد جامعة بغداد ١٩٧٦
- ٦ - مخطوطات عربية في مكتبة صوفية الوطنية
بغداد المجمع العلمي العراق ١٩٦٨
- ٧ - الاشتراكية والقومية وأثرهما في الأدب العربي الحديث
القاهرة معهد الدراسات والبحوث العربية ١٩٦٨
- بغداد جامعة بغداد ١٩٧٦
- ٨ - شعراء العراق في القرن العشرين ج ١
بغداد جامعة بغداد ١٩٦٩
- ٩ - فهمي المدرس من رواد الفكر الحديث
القاهرة معهد الدراسات والبحوث العربية ١٩٦٩
- بغداد جامعة بغداد ١٩٧٦
- ١٠ - الرواية في العراق تطورها وأثر الفكر فيها
القاهرة معهد الدراسات والبحوث العربية ١٩٧٣
- ١١ - القصة في العراق جذورها وتطورها
القاهرة معهد الدراسات والبحوث العربية ١٩٧٤
- ١٢ - تطور الفكر الحديث في العراق
بغداد دار المناهل للترجمة والنشر ١٩٧٦
- ١٣ - إبراهيم صالح شكرو بواكير النثر في العراق
القاهرة معهد الدراسات والبحوث العربية ١٩٧٥
- ١٤ - قلب على سفر (رواية)
القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨

القاهرة دار الشروق ١٩٨٦

١٥ - مخطوطة شعر الأخرس

بغداد مطبعة العاتي ١٩٦٢

١٦ - النصرة في أخبار البصرة (للأنصاري)

بغداد المجمع العلمي العراقي ١٩٦٩

بغداد جامعة بغداد ١٩٧٦

١٧ - في ضمير الزمن (شعر)

الإسكندرية . دار الطباعة الحديثة ١٩٥٠

القاهرة مطبعة الرسالة ١٩٧٠

الرياض دار أمية للنشر والتوزيع ١٩٨٥

١٨ - ألحان (شعر)

الإسكندرية دار الطباعة الحديثة ١٩٥٣

القاهرة دار العلم للطباعة ١٩٧١

الرياض دار أمية للنشر ١٩٨٥

١٩ - هبات الحياة (شعر)

بيروت دار العلم للملايين ١٩٦٠

القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧

٢٠ - من رحلة الحياة

بغداد مطبعة أسعد ١٩٦٩

القاهرة دار الإبداع الحديث ١٩٨٥

٢١ - in R.A.Q.I Poetry

القاهرة المطبعة الثقافية ١٩٧١

٢٢ - R.A.Q.I Poetry And Soicial life

بغداد مطبعة العاني ١٩٦٢

٢٣ - فصول في الأدب الحديث والنقد

الرياض - دار العلوم ١٩٨١

٢٤ - Songs From Boghded Lamda 1984

٢٥ - الحياة الفكرية في العراق

القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥

٢٦ - قضايا من الفكر العربي

القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨

٢٧ - الشعر العربي الحديث جذوره الاجتماعية وعوامله النفسية

نادى جدة الادبي ١٩٨٦ .

٢٨ - التحدي الحضاري والغزو الفكري

الرياض دار أمية للنشر والتوزيع ١٩٨٥

الفهرس

٥	مقدمة الطبعة الثانية
٧	فى مطار لندن.....
١٩	قال الراوى
٣١	فى كولون.....
٤٣	إلى كوبلنز.....
٥٩	العودة إلى كولون.....
٨١	نحو القنال
١١٣	ذكرىات
١١٩	الوداع
١٢٧	بعد عشرين سنة

رقم الايداع . ٨٧ ٨٨٣٩
التزليم الدولي : ٩ - ١٦٨ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة : ٨١٦٦ - ٨١٦٦ - ٨١٦٦ - ٨١٦٦ - ٨١٦٦ - ٨١٦٦ - ٨١٦٦ - ٨١٦٦ - ٨١٦٦ - ٨١٦٦
بيروت : ٨١٦٦ - ٨١٦٦ - ٨١٦٦ - ٨١٦٦ - ٨١٦٦ - ٨١٦٦ - ٨١٦٦ - ٨١٦٦ - ٨١٦٦ - ٨١٦٦

هَذَا الْكِتَابُ

حرصت في هذه الرواية أن أتجاوز مرحلة القصة
الحديثة التي سار على نهجها الكتاب فجمعت فيها
الرواية والقصة والمقالة والحوار الداخلي والعوامل
النفسية والاشارات اللغوية والتعبير باللفظ الموحى
والحوادث الدالة على خطوات المجتمع العامة ، سواء
في السرد أم في مسيرة أبطالها أو الاستيطان الداخلي في
الحوادث .

د . يوسف عز الدين